محاضرات في التفسير والحديث الموضوعي

هذه ملخصات لدروس التفسير والحديث الموضوعي للسنة الثالثة دعوة وثقافة اسلامية

للسنة 2020 / 2021م بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية

كلية أصول الدين

للدكتور رياض عميراوي

القسم الأول: ويشمل الجانب النظري للمادة

في تعريف التفسير الموضوعي وألوانه

أهميته ضوابطه وخطوات كل لون منه

في تعريف الحديث الموضوعي وأنواعه

أهمية البحث في الحديث الموضوعي وفوائده وطرقه

المصنفات في هذا النوع من الدراسة والجديد فيها

خطوات الدراسة الموضوعية للسنة النبوية

القسم الثاني: ويشمل الجانب التطبيقي للمادة

دليل الآفاق والأنفس في القران الكريم

منهج القران الكريم في الاستدلال على عقيدة التوحيد والبعث والنبوات

الجدل في القران الكريم –نوح/إبراهيم/موسى.

د.رياض عميراوي

السنة الدراسية: 2020/2021م

تمهيد:

نقدم بين يدي الطالب مذكرة بيداغوجية في مقياس التفسير الموضوعي حتى يتسنى له الاطلاع على منهج من مناهج التفسير، سواء فيما تعلق بالجانب النظري منه أو بالجانب التطبيقي، كما يمكنه معرفة أهم مصادر هذا المنهج ومعرفة أصحابه ممن أصَّل له وممن كتب فيه، وممن طبق عليه، حيث يُعد منهج التفسير الموضوعي من المناهج الحديثة التي تعنى بتفسير القرآن الكريم، ويمكن تعميم هذا المنهج على باقي الدراسات الاسلامية الأخرى كالحديث النبوي والفقه والعقيدة وربما إلى غيرها كباقي العلوم الانسانية، وقد اختلف العلماء في كون نشأة هذا المنهج قديما أم حديث النشأة، والذي كانت له ارهاصات منذ عصر النبوة وعصر الصحابة والتابعين الى عصر التدوين الى أن بلغ أشده في العصور المتأخرة، ولكنه ما زال لم يبلغ ذروته في الضبط والتحرير إذا ما قورن بعلوم أخرى كأصول الفقه واللغة وعلم العقيدة وغيرها.

وقد أسهم بعض العلماء في الكتابة في هذا الموضوع من ناحية التقعيد والتأصيل والنشأة ولكنهم لم يتفقوا على بعض المسائل فيه كأنواعه وأقسامه وخطواته وبعض شروطه.

حيث أوصلهم اجتهادهم على العموم لوضع ثلاث أنواع رئيسية في التفسير الموضوعي وهي:

1-التفسير الموضوعي التجميعي.

2-التفسير الموضوعي الكشفي (الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية).

3-التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني.

وسأحاول في هذا البحث أن أتناول جانبين مهمين جانب نظري والآخر تطبيقي، وذلك بالتعريف بهذا المنهج ونشأته وأهم مصادره وكل ما تعلق به من حيث التعريف بكل نوع من أنواعه، وخطوات كل نوع، وأما الجانب التطبيقي فهو تطبيق هذا المنهج على مواضيع قرآنية متنوعة، وسور مخصوصة، ومصطلحات محددة، من خلال خطة محكمة تتلخص في 16 محاضرة متكاملة مضبوطة. والله الموفق.

القسم النظري

مقدمات ومفاهيم حول منهج التفسير الموضوعي

وفيه محاضرتين

- تعريف منهج التفسير الموضوعي
- أنواع التفسير الموضوعي
- أهمية منهج التفسير الموضوعي
- قواعد التفسير الموضوعي وضوابطه.
- خطوات التفسير الموضوعي.

المحاضرة الأولى

الدرس الأول

منهج التفسير الموضوعي

- ✓ مقدمة
- ✓ تعريف منهج التفسير الموضوعي.
- ✓ تعريف التفسير لغة واصطلاحا.
- ✓ تعريف الموضوع لغة واصطلاحا.
- ✓ تعريف المركب الإضافي لمنهج التفسير الموضوعي.
- ✓ أهمية التفسير الموضوعي.
- ✓ مصادر التفسير الموضوعي.

مفهوم منهج التفسير الموضوعي.

1-تعريف التفسير الموضوعي.

لتعريف التفسير الموضوعي ينبغي أن نتعرض لتفسير لفظيّ هذا المركب، المكون من لفظة "التفسير" ولفظة "الموضوعي"، فنبدأ أولا بتعريف مادة "فسر" في اللغة ثم في الاصطلاح، وبعد ذلك نتعرض لمادة "موضـــوع"، لنعود بعد ذلك فنعرّف هذا المركب اللفظي كعَلَم على علم مخصوص، وفن مدون.

أولا: التفسير

لغة: التفسير في اللغة هو تفعيل من الفِسْر، الذي هو الكشف والبيان، وفسَّر الشيء يفسّره بالكسر، ويفْسُره بالضم فَسْرًا، يعني: أبانه، والتفسير كشْفُ المراد عن اللفظ المبهم[1]، وقال الأزهريُّ: الفَسْرُ: «كشف ما غُطِّيَ، وهو بيان وتفصيل للكتاب [العزيز]... والتَّفْسِرَةُ: اسم للبول الذي ينظر فيه الأطباء يستدلون بلونه على عِلَّـــةِ العليل، [فكذلك المفسر يكشف عن شأن الآية، وقصصها، ومعناها، والسبب الذي أُنزلت فيه، وكأنَّهُ تسمية بالمصدر، لأن مصدر فعل جاء أيضا على تفعلة]، يعني فسَّرَ تَفْسِرَة.

وكل شيء يُعرفُ به تفسير الشيء ومعناه، فهو تفسرته، وقول الله تعالى: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[2]، وقـــال بعضهم: التفسير: «كشف المراد عن اللفظ المشكل»[3]، وفَسَرَ وسَفَرَ لغة واحـــدة، أي إشـــتقاقهما واحـــد، ومعناهما الكشف، قال الجوهريُّ: «... وسَفَرَتِ المرأة: كشفت عن وجهها، فهي سافرٌ، ومَسَافِرُ الوجه: مـــا يظهر منه... وأسفر الصبح، أي أضاء، وفي الحديث: أسفروا بالفجر، فإنَّهُ أعظم للأجـــر[4]..وأســـفر وجهـــه حُسْنًا، أي أشرق»[5].

وقال الزركشي في البرهان: «والتفسير هو الكشف أيضا، فالتفسير كشف المغلق من المراد بلفظه، وإطلاق للمحتبس عن الفهم به، ويُقال: فسَّر الشيءَ أفْسَره تفسيرا، وفسَّرْتُهُ أُفْسِرُهُ فسرًا، والمزيد من الفعلين أكثـــر في الاستعمال، وقال آخرون هو مقلوب من سفر ومعناه أيضا الكشف، يقال سفرت المرأة ســـفورا إذا ألقـــت

---

1 – لسان العرب، جمال الدين ابن منظور، تحقيق: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 2003م/1424هـــ، ج6، ص: 134.

2 – سورة الفرقان: آية 33.

3 – معجم تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: د. رياض قاسم، دار المعرفة، الطبعة:1، سنة: (1422هـــ/2001م)، بيروت، لبنان. المجلد الثالث، ص: 2787.

4 – حديث رواه الترميذي، في سننه، باب: ما جاء في الإسفار، ج1، ص: 263، ورواه النسائي في باب: الإسفار بالفجر، ج2، ص: 277، ورواه أحمد في المسند من طريق رافع بن خديج، ج35، ص: 150/ج48، ص: 157/ ج48، ص: 172. وأخرجه = ابن أبي شيبة في مصنفه: ج1، ص: 345.355، 457، 478. ورواه الطبراني في المعجم: ج9/4/17، ص: 460.13.150. ورواه البيهقي في الآثار، باب: الصبح، ج2، ص: 325.

5 – تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة4، 1426هـــ/2005م، بيروت لبنان، الجزء: 2، ص: 589.

خمارها عن وجهها، وهي سافرة، وأسفر الصبح أضاء»[1]. وجميعهم متفقون على أن أصل التفسير الكشف والبيان.

اصطلاحا: لقد تفاوتت التعاريف الاصطلاحية لهذا اللفظ بسبب اختلاف العلماء في تحديد ما يندرج تحته من مدلول ومعنى، ومقصد، فبعضهم يقول: هو علم يُعرف به نزول الآيات، وشؤونها وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيِّها، ومدنيِّها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وأمثالها وغيرها[2]

وقد جمع هذا التعريف كل ما يتعلق بعلوم القرآن، وتناول مختلف الدراسات القرآنية.

وهناك من يقول: «هو علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك[3]

وقصد بذلك عدة علوم كالقراءات، ومعاني الألفاظ، والنحو، والصرف، والبيان، والبديع، وهذا يُفهم من خلال قوله: «كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها، وأحكامها التركيبية والافرادية»، والمجاز من خلال قوله: «ومعانيها التي تُحمل عليها حالة التركيب»، وقصد أيضا علم أسباب النزول والمبهم...وغيره، وهذا يُفهم من قوله: «وتتمات ذلك»، وهو كل ما يتعلق بما جاء في كتاب الله من متشابه ومحكم وقصص...وغيره.

وأما الزركشي فيعرّف التفسير بقوله: «التفسير: علم يُعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة، والنحو، والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ»[4]، وهو الكشف عن مراد الله بقدر الطاقة البشرية.

وهذا الأخير تعريف عام، يفهم منه أن التفسير هو الجهد الذي يبذله المفسر، للكشف عن مراد الله تعالى من خلال خطاب الله المتعلق بأفعال العباد، بقدر استطاعته، وبقدر ما آتاه الله من علم، وبما فتح الله به عليه من فهم.

ثانيا: الموضوع

لغة: فهو في الأصل مصدر ميمي لفعل وضع، يقال في اللغة وضعه يضعه وضعا وموضعا وموضوعا، بمعنى حطّه، ويقال ذلك في الحمل والحمل -بفتح وكسر الحاء- فيقال: وضعت الحمل فهو موضوع، قال ﷺ:

1- البرهان في علوم القرآن، للإمام بد ر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، (1376 هـ/ 1957م)، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركائه، ج1، ص: 147.

2 – كشاف اصطلاحات الفنون، محمد علي الفاروقي التهانوي، تحقيق: لطفي عبد البديع، المؤسسة المصرية العامة، مكتبة النهضة العربية، الطبعة:1، 1382هـ /1963م، ص: 33.

3 – البحر المحيط، علي بن يوسف أبي حيان الأندلسي، ج1، ص: 14.

4 – البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، (مصدر سابق)، ج1، ص: 13.

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾[1] وقوله ﷻ: ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾[2]، فهذا الوضع عبارة عن الإيجاد والخلق. ووضْعُ البيت: بناؤه، قال ﷻ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾[3] ووضعت الدابة، أسرعت، وتضع في سيرها: تُسرع، ودابة حسنة الموضوع سريعة، وأوضعتها: حملتها على الإسراع[4]، والإبل ألزمتها المرعى فهي موضوعة[5].

والموضوع أيضا من الوضع؛ وهو جعل الشيء في مكان ما، سواء أكان ذلك بمعنى الحط والخفض، أو بمعنى الإلقاء والتثبيت في المكان، تقول العرب: ناقة واضعة: إذا رعت الحمض حول الماء و لم تبرح، وهذا المعنى ملحوظ في التفسير الموضوعي، لأن المفسر يرتبط بمعنى معين لا يتجاوزه إلى غيره حتى يفرغ من تفسير الموضوع الذي أراده[6].

وهذه لفظة غنية المعاني، حقيقية ومجازية، وهي لا تستعمل في الاستعمال الذي نقصده لأنها مصطلح حديث شاع حتى أصبح حقيقة عرفية على القضية العلمية.

اصطلاحا:

جاء في المعجم الوسيط: «الموضوع هو المادة التي يبني عليها المتكلم أو الكاتب كلامه»[7]، وهو محل العرض المختص به، وموضوع كل علم: ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية، كبدن الإنسان لعلم الطب، وكالكلمات لعلم النحو[8].

ويعرّفه آخرون بأنه قضية، أو أمر متعلق بجانب من جوانب الحياة، في العقيدة أو السلوك الاجتماعي، أو مظهرا من مظاهر الكون، تعرّضت لها آيات القرآن الكريم[9]، وإضافة (تفسير) إلى (موضوعي): صارت علما على هذا الفن، بعد أن رُكبت معها وصارت كلمة واحدة، كما هو الشأن في اسم (معد يكرب)، أو (حضرموت)، أو (سيبويه)، فتنوسيت تلك الإضافة مع مرور الزمن، وصارت كأنها كلمة واحدة لها معنًا خاصًا بها.

1- سورة: الغاشية، الآية: 14.

2- سورة: الرحمن، الآية: 10.

3- سورة: آل عمران، الآية: 96.

4- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سعيد كيلاني، دار المعرفة، (دون تاريخ)، بيروت. ص: 526.

5- التفسير الموضوعي، عبد الجليل، (مصدر سابق)، ص:33.

6 – مقدمة في التفسير الموضوعي، محمد بن عبدالعزيز الخضيري، كلية المعلمين قسم الدراسات القرآنية، ص: 20.

7- مجمع اللغة العربية، (مصدر سابق)، ج: 2، ص: 1052.

8- التوقيف على مهمّات التعاريف، عبد الرؤوف المناوي، (مصدر سابق)، ص: 720.

9 – مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، (مصدر سابق)، ص: 16.

أما تعريف التفسير الموضوعي كمركب إضافي فهو: عبارة عن منهج جديد يُتناول بـه تفسـير القـرآن الكريم، بطريقة سهلة ميسورة تخدم المقبلين على كتاب الله، فتمكنهم من فهم القرآن الكـريم فهمـا دقيقـا كاملا، وهو «عبارة عن جمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع واحد، مشتركة في الهدف، وترتيبـها على حسب النزول-كلما أمكن ذلك- ثم تناولها بالشرح والتفصيل، وبيان حكمة الشارع في شرعه وقوانينه، مع الإحاطة التامة بكل جوانب الموضوع كما ورد في القرآن الكريم، والدب[1] عما يمكن أن يكون قـد أثـير حوله من شُبَه الضالين والملحدين من أعداء الدين»[2]، وقيل: هو علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنيـة من خلال سورة أو أكثر[3].

وقيل: هو علم يبحث في قضايا القرآن المتحدة معنى وغاية عن طريق جمع آياتها المتفرقة، والنظر فيها على هيئة مخصوصة بشروط مخصوصة لبيان معناها، واستخراج عناصرها، وربطها برباط جـامع[4]، وكـل هـذه التعاريف متقاربة بعضها لبعض، إذ تصب في معنى واحد، فبعضهم عرّف التفسير الموضوعي باعتبـاره علمـا على فن مدون، وبعضهم عرفة على اعتبار أنه مركب وصفي، ولعل كل هذه التعاريف تخدم بعضـها بعضـا وتتم المعنى المطلوب.

أهمية التفسير الموضوعي:

أخذ التفسير في العصر الحديث اتجاهات متعددة ومناهج متنوعة، بعضها يساير ما كان عنـد القـدامى ويعتبر امتدادا له، وبعضها لم يكن له عند القدامى قسمات واضحة، وإنما هو لون تعـروه جـدة في إطـاره، وبعض مضامينه، وإن كان لا يخلو من أثر يمكن نسبته إلى جهود القدماء، ولقد اجتهد المعاصرون في البحـث عن طرق وسبل تيسّر لهم فهم القرآن الكريم، وضوابط وقواعد جديدة تُمكن المفسر من خوض غمار هـذا الكتاب العظيم، وهذا بسبب التقدم والتطور الذي عرفته البشرية.

يقول الدكتور محي الدين بلتاجي في هذا الشأن: «والواقع أن الحياة الانسانية قد تغيرت معالمها ومعارفهـا تغيرا كبيرا منذ بدأ التأليف في التفسير عند القدامى، بمساراتهم التي ارتضوها حتى هذا القرن الـذي نعيشـه، والذي تشكلت في مطلعه حضارة مادية أظلت حياة الناس، تغلب عليها النظرة العلمية، وتوجه الكـثير مـن اتجاهات الفكر فيها... ومما لاشك فيه أن كثيرا من القضايا التي عرض لها القدامى من المفسرين، لم تعد تساير العصر، لأنها ليست من معطياته الفكرية في شيء، ومن هنا اتجه الكثير من المحدثين إلى التفسير، وهم يحـاولون الربط بين ما جدّ في حياتهم من قضايا وبين كتابهم»[5]

---

1 – تعني: الدفاع.

2 – التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، محمد يوسف القاسم، الطبعة الأولى، سنة: 1401هـ/1981م، القاهرة، القسم الأول، ص: 7.

3 – مباحث في التفسير الموضوعي، (المصدر السابق)، ص: 16

4 – التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا، أحمد رحماني، منشورات جامعة باتنة، ص: 42.

5 – دراسات في التفسير وأصوله، محي الدين بلتاجي، دار الثقافة، الطبعة:1، ص: 193 سنة: 1987م، بيروت.

ويقول الدكتور يوسف القاسم: «ممّا لا شك فيه أن هذا النوع من تفسير القرآن الكريم نحن في أشد الحاجة إليه، وخصوصا في هذا العصر الذي تقدمت فيه العلوم والمعارف، وتغيرت العادات والتقاليد عما كانت عليه من قبل، وأصبحنا في حاجة ماسة إلى عرض أعمالنا على القرآن والسنة الشريفة وعمل السلف الصالح، فما وافق أخذنا به وما لا يوافق طرحناه وراء ظهورنا»[1].

وإن تقسيم القرآن إلى مواضيع معينة وتفسيرها، هي الطريقة المثلى في الكشف عن خبايا هذا الكتاب، من تشريعات، وقواعد، وسلوك حميد، وكل ما من شأنه يفيد الناس في حياتهم، وما يتعلق بسلوكهم، وهذا ما يشعرنا بما للقرآن من صلة وثيقة بنظامنا الديني، والاجتماعي، والأخلاقي.

كما أن أهمية هذا المنهج تكمن في التصدي لمبادئ الشيوعية والإلحاد وبعض المادية، خاصة وأنها تدعي إطلاق الحرية، وتتهم الآباء بالغفلة والرجعية، وذلك من خلال إبراز مواضيع القرآن الكريم بصورة علمية جديدة، وبشكل يخدم القضايا المعاصرة، ويطرح الموضوع من جوانبه المختلفة، لتكتمل الصورة، وتقوم الحجة، على كل من يدعي فهم الحياة وحقيقة الإنسان، ليزداد الذين آمنوا إيمانا، وليستيقن من كان في قلبه ريب.

كما تتجلى أهمية هذا المنهج في إبراز وجه من أوجه إعجاز هذا الكتاب المحكم المرتب ترتيبا يوحي بأنه من عند حكيم حميد، لا سيما إذا كانت أسباب النزول متعددة، وأزمنة النزول متباعدة، حيث يظهر ذلك من خلال جمع الآيات، وصبها في موضوع واحد، كما هو الشأن في هذا المنهج من التفسير.

ويرى الأستاذ أحمد رحماني أن أهمية التفسير الموضوعي تكمن في تحديده موضوع معين، وهو تتمة لرسالة الفقهاء[2].

ويمكن تلخيص أهمية هذا المنهج في الأمور التالية:

الأول: إبراز وجوه جديدة من إعجاز القرآن الكريم، فكلما جدّت على الساحة أفكار جديدة -من مُعطيات التقدم الفكري والحضاري- وجدها المفسر جلية في آيات القرآن، لا لبس فيها ولا غموض، بعد تتبع مواطن ذكرها فيه، فيسجل عندها سبق القرآن إليها، ويدلل بذلك على كونه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه الذي لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي غرائبه ودلائل إعجازه.

الثاني: التأكيد على أهمية تفسير القرآن بالقرآن، الذي هو أعلى، وأجل أنواع التفسير، إذ قد يوجد من لا يلجأ إلى القرآن عند إرادة إيضاحه وتفسيره لقصور فيه، أو تقصير منه، وبالتفسير الموضوعي ندرك أهمية هذا اللون من التفسير فتزداد عنايتنا به، وتتعاضد جهودنا لبيانه، فَكَفى بذلك الوقوف عند كثير من مشكل القرآن، أو مواطن الخلاف بين علماء الأمة في تفسير آياته، ونورد ما يوضح المراد ويشفي العليل ويروي

---

1 – التفسير الموضوعي، يوسف القاسم (مصدر سابق)، ص:10.

2 – التفسير الموضوعي، أحمد رحماني، (مصدر سابق)، ص: 14.

9

الغليل بالقرآن نفسه.

الثالث: إن تجدد حاجة البشرية، وبروز أفكار جديدة على الساحة الإنسانية وانفتاح ميادين للنظريات العلمية الحديثة لا يمكن تغطيتها ولا رؤية الحلول لها إلا باللجوء إلى التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، إذ عندما نجابه بنظرة جديدة، أو علم مستحدث، فإننا لا نقدر على تحديد الموقف من هذا العلم، وتلك النظرية، وحل المشكلة القائمة، وبيان بطلان مذهب، إلا عن طريق تتبع آيات القرآن، ومحاولة استنباط ما يجب لحو كل أولئك.

وإن جمع أطراف موضوع ما من خلال نصوص القرآن والسنة، يمكّن الباحث من القيام بدور اجتهادي للتوصل إلى تنظير أصول لهذا الموضوع، وعلى ضوء هدايات القرآن ومقاصده نستطيع معالجة أي موضوع يجدّ على الساحة.

الرابع: إثراء المعلومات حول قضية معينة، فغالباً ما يُطرح موضوع أو قضية أو فكرة أو مشكلة للبحث، ويبقى أيٌّ من ذلك محتاجاً إلى إشباع، ومزيد من الدراسة، ويتم تحقيق ذلك من خلال التفسير الموضوعي بحيث تتبين لذوي الشأن أدلة جديدة، ورؤى مستفيضة، وتفتيق لشيء من أبعاد القضية المطروحة.

الخامس: تأصيل الدراسات أو تصحيح مسارها: لقد نالت بعض علوم القرآن حظاً وافراً من البحث والدراسة، إلا أن هناك علوماً أخر برزت جديدة تحتاج إلى تأصيل بضبط مسارها حتى يؤمن عثارها مثل (الإعجاز العلمي في القرآن)، فقد كثر الكاتبون حوله إلا أنه بحاجة ماسة إلى ضبط قواعده لِيُتَجَنَّب الإفراط فيه أو التفريط، وهذا إنما يتم عبر دراسة موضوعية لآيات القرآن وهداياته في هذا المجال.

وهناك علوم ودراسات قائمة منذ القدم لكن المسار الذي تنتهجه يحتاج إلى تصحيح وتعديل، وإعادة تقويم، كعلم التاريخ الذي أخذ منهجاً في سرد الوقائع والأحداث من غير تعرض لسنن الله في الكون والمجتمع، علماً بأن هذه السنن قد أبرزها آيات القرآن خلال قصصه بشكل واضح، وهناك الخرافات مبثوثة في كتب التاريخ تخالف ما نص عليه في القرآن الكريم، ولن يتم تعديلها وتقويم مثل هذه العلوم إلا بطريق استقصاء منهج القرآن في عرضها ودراستها..[1]

خطوات التفسير الموضوعي:

رأينا سابقا أنواع التفسير الموضوعي، ولخصناها في ثلاثة ألوان رئيسية، وقد امتاز كل لون بخطوات منهجية معينة نتطلع إليها في هذا المبحث حتى يتسنى لنا الوقوف عليها ومن ثم مباشرتها في الجانب التطبيقي لهذا المنهج، ولنبدأ باللون الأول.

---

1 – مقال للأستاذ: محمد بن عبدالعزيز الخضيري، كلية المعلمين، قسم الدراسات القرآنية، بتاريخ: 2002/02/05م.

10

خطوات التفسير الموضوعي التجميعي:

1-اختيار العنوان موضوع البحث بدقة وعناية مما له علاقة بحياة الناس، وفي أي مجال من مجالات الحياة، له تعلق بوظيفة الانسان ككائن بشري وكمخلوق لله تعالى.

2-جمع الآيات القرآنية الدالة على الموضوع إن تصريحا أو تلميحا، وذلك باستقراء القرآن الكريم كله.

3-النظر في مختلف هذه الآيات المستخلصة ذات الموضوع المشترك، واستخراج معانيها الظاهرة (أفكار) يمكن أن تكون –أي هذه المعاني– هي الوحدة الأساسية لبناء الخطة (خطة البحث)، تحت مباحث ومطالب.

3-تقسيم هذه الآيات حسب عناوين المباحث والمطالب في الخطة التي وضعت أساسا على حسب المعاني المستنبطة، وترتيبها حسب المكي والمدني وترتيب النزول....

4-الشروع في تحليل وتفسير هذا الآيات مع أخذ بعين الاعتبار اللغة والقراءات والناسخ والمنسوخ..ومحاولة ربط هذا الآيات ببعضها البعض.

5-استخراج الهدايات والاحكام والحكم وصياغتها في شكل قوانين ونظريات تساهم في وضع حلول للمشكلة المطروحة.

خطوات التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني :

1-اختيار اللفظ القرآني الذي نريد دراسته، على أن يكون قليل الدوران على ألسنة الناس.

2-الوقوف على الجذر الثلاثي للكلمة، والتبحر في الكشف عن الاشتقاقات القريبة والبعيدة للفظة المدروسة، ومحاولة الاحاطة بالتعريف اللغوي والاصطلاحي للكلمة.

3-جمع الآيات التي وردت فيها هذه اللفظة فقط ولكن بجميع اشتقاقاتها وتصريفاتها في الماضي والحاضر والمستقبل وفي صيغها المختلفة في الاسم والفعل والمصدر واسم الفعل والصفة....والجمع والمفرد والمؤنث والمذكر والنكرة والمعرفة...

4-الكشف عن مدلولات اللفظة وكيفية استعمال القرآن لها والسياقات التي وردت فيها .

5-تفسير الآيات التي ورد فيها هذا اللفظ، وتحليلها والخروج بعد ذلك بمفهوم لهذه الكلمة القرآنية وضبط أوجه مدلولاتها في القران الكريم، ووضعها في السياق الصحيح لفهم آيات الكتاب.

6-اسقاط هذه المفاهيم على واقع الناس وربطها بالجوانب التربوية والاخلاقيـــة والاقتصـــادية والاجتماعي.....الخ.

خطوات التفسير الموضوعي الكشفي:

-أولا: الجانب النظري

1-اختيار السورة محل البحث.

2-بين يدي السورة وفيها: التعريف بالسورة، كاسمها وعدد آيها، وترتيبها في المصحف، وكل ما تعلق بها من أسباب النزول وزمنه، وفضل السورة ....

3-مناسبات السورة الخارجية: وجه ارتباط السورة مع السورة التي قبلها والتي تليها.

4-أغراض السورة ومقاصدها وارتباطها بمقاصد وأغراض السورة التي قبلها والسورة التي بعدها.

ثانيا: الجانب التطبيقي:

1-تقسيم السورة الى مواضيع جزئية ومحاور فرعية (يمكن أن يشمل الموضوع الفرعـــي عـــدة أغراض أو مقاصد)، أو إلى مقاطع ودروس على حد تعبير سيد قطب وحلقات.

2-محاولة الكشف عن المحور الأساسي للسورة، وذلك من خلال:

أ/اسم السورة ب/فضل السورة ج/مطلع السورة د/المواضيع الفرعية للســـورة هـــــ/ خاتمـــة السورة.

3-مناسبات المواضيع الفرعية فيما بينها وكذا مناسباتها مع المحور الرئيس للسورة، مع ربط المطلع بالخاتمة أو ما يعرف بقلب العجز على الصدر.

4-الخروج بتصور عام للسورة مع مراعات السياقات التي جاءت في الســـورة وتناســـبها مـــع أغراض السورة ومقاصدها، وكيف خدمت هذه المواضيع موضوع السورة الرئيس.

المحاضرة الثانية

الدرس الثاني

أنواع التفسير الموضوعي

- ✓ التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني
- ✓ التفسير الموضوعي التجميعي وللموضوع القرآني
- ✓ التفسير الموضوعي الكشفي (الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية)
- ✓ قواعد التفسير الموضوعي وضوابطه.

13

أنواع التفسير الموضوعي:

من خلال استعراضنا لبعض ما أُلّف في هذا المنهج، ومن خلال ما نلحظه في التفاسير القديمة والحديثة، وما كُتب في التنظير لهذا المنهج نستنتج ثلاثة أنواع من ألوان التفسير الموضوعي.

اللون الأول: التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني:

وهو ما يُعرف **بالتفسير الموضوعي للّفظة القرآنية**، وطريقته أن يتتبع الباحث لفظة معينة من القرآن الكريم، كالعقيدة، أو الحب، أو الأمانة، أو الجهاد، أو النفاق...، فيجمع لها الآيات التي وردت فيها هذه اللفظة من القرآن الكريم كله، سواء بلفظها أو بمشتقاتها، ثم يعهد الباحث إلى تفسير هذه الآيات، مستنبطا من خلالها دلالات تلك اللفظة، واشتقاقاتها من خلال استعمال القرآن لها، فتكتمل بذلك الصورة، حيث يُطلعنا ذلك على أساليب القرآن الكريم في تعامله مع الألفاظ، واستخدامها في الموضع الأليق بها، دون تقديم أو تأخير.

وهذا اللون من التفسير الموضوعي أشبه بما في بعض الدراسات السابقة، كالأشباه والنظائر، وغريب القرآن، وغيرها.

وقد أورد الدكتور مصطفى مسلم بعض النماذج من هذا اللون من التفسير، نكتفي بذكر أنموذجا واحدا لإيفائه بالغرض، حيث جاء في كتابه: "مباحث في التفسير الموضوعي" تحت عنوان نموذج من كتاب: "إصلاح الوجوه والنظائر" للدامغاني، ما يلي: «قال الدامغاني تحت مادة: (خ ي ر)، (خير) على ثمانية أوجه:

المال، الإيمان، الإسلام، التفضيل، العافية، الأجر، الطعام، الظفر والغنيمة.

- فمعنى المال جاء في قوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾[1].
- ومعنى الإيمان جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾[2].
- ومعنى الإسلام جاء في قوله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[3].

---

1 – سورة البقرة: 180

2 – سورة الأنفال: 23.

3 – سورة البقرة: 105.

14

- وبمعنى أفضل جاء في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾[1].
- وبمعنى العافية جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].
- وبمعنى الأجر في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾[3].
- وبمعنى الطعام في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾7.
- وبمعنى الظفر والغنيمة، جاء في قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾[4]»[5].

وهذه الأمثلة التي سقناها من القرآن ليست وحدها التي جاء فيها الخير بهذه المعاني بل هناك آيات أخرى أعرضنا عن ذكرها لعدم التطويل.

اللون الثاني: التفسير الموضوعي التجميعي: ويعرف أيضا باسم التفسير الموضوعي لموضوع قرآني، حيث يختار الباحث موضوعا له أبعاده الواقعية في الحياة أو العلم أو السلوك... مما يتعلق بأمور الناس، ويفيد البشر جميعا، وخاصة المسلمين في حياتهم، ويشكل منه موضوعا يدرسه على ضوء القرآن الكريم من خلال آياته، ويخرج بعد ذلك بخلاصة تساعد في فهم جوانب الموضوع، وتعطي حلولا للمشاكل المطروحة.

وهذا اللون من هو الذي اشتهر بين أهل الاختصاص، وإذا ما أطلق اسم التفسير الموضوعي، فلا يكاد ينصرف الذهن إلاّ إليه[6].

وفيه أن يقوم الباحث بجمع آيات تصب في موضوع واحد، ويقوم بتفسيرها على ضوء ما تسمح به ثقافته، ثم ينسق بين معاني هذه الآيات، ويقسمها إلى مقدمة، وصلب، وخاتمة، ويربط كل ذلك، بالواقع الذي انطلق منه، ليعود في الأخير إلى استخلاص قواعد وحلول شاملة للمشكل المدروس.

وقد ألّف في مثل هذا النوع العلماء السابقون، إذ يجمعون الآيات المشتركات في شيء واحد

---

1 – سورة المؤمنون: 118.

2 – سورة الأنعام: 17.

3 – سورة الحج: 36.

4 – سورة الأحزاب: 25.

5 – مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، دار القلم، ط2، 1997م/1418هـ، دمشق، ص: 24.

6 – المصدر نفسه: ص: 28.

15

مثل الأمثال في القرآن، أو الآيات التي اشتملت على الأحكام، أو ما جاء في الناسخ والمنسوخ، أو غير ذلك مما له رابط بعضه ببعض، ولكنهم أوردوها ليقفوا على ما فيها، فلم يربطوا بينها ليستخلصوا موضوعا واحدا بالصورة التي نعهدها اليوم في هذا المنهج، و لم يتجاوزوا الحديث عن مدلولات ومعاني تلك الآيات واستخلاص مسائل جزئية، فضلا عن تقسيمهم لتلك المجموعات من الآيات، لتشكل مقدمة وصلب موضوع، وخاتمة، بل جمعت بطريق آخر ورتبت إما ترتيبا مصحفيا، أو بحسب المتقدم منها والمتأخر، لتخدم الغرض الذي جمعوا من أجله تلك الآيات.

ولعل كثيرا من المؤلفين في هذا العصر قد دأب على هذا الطريق، فكتبوا في هذا النوع، خاصة بعض الباحثين من طلاب في رسائلهم الجامعية، وهي مواضيع منتشرة في المجلات والدوريات، مثل "حقوق الإنسان في القرآن"، و"العِرض في القرآن"...وغيرها، وقد خطا هذا النوع خطوات لا بأس بها، وهو في طريق النمو، والإزدهار.

اللون الثالث: الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية:

وهو التفسير الموضوعي الكشفي، ويسمى أيضا التفسير الموضوعي للسورة القرآنية، أو الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، وهو أن يختار الباحث سورة من القرآن تكون مدار بحثه، ويخرج منها بدراسة موضوعية متكاملة، كما فعل باقر الصدر عندما تناول سورة البقرة، وسورة هود، ويونس، وسنذكر بعض من أُلِّفَ في هذا النوع في الحديث عن الوحدة الموضوعية ونشأتها.

وهذا اللون من التفسير الموضوعي لا يتجاوز السورة الواحدة من القرآن، وطريقته أن يستوعب الباحث الموضوع الرئيس للسورة، وكذا مواضيعها الجزئية، مستعينا في ذلك بعدة أمور، مثل ترتيب النزول، وأسبابه، وهل تلك الآيات مكية أو مدنية، مع دراسة لأسلوب القرآن في تناول ذلك الموضوع، مع التركيز على كشف ذلك الرابط الذي يجمع تلك الموضوعات الجزئية، وإبراز علاقتها بالموضوع الرئيس للسورة، لتفسر تلك المجموعات وتلك المقاطع من الآيات بصورة عامة متكاملة، بعد تقسيمها وترتيبها بحسب ما يقتضيه الموضوع، على أساس أن يخرج المفسر بعد الدراسة بإحاطة وافية للموضوع، وإلمام تام بجوانبه، في شكل خلاصة يسهل فهمها، والأخذ بها.

وقد شح هذا اللون من التفسير في كتب القدماء، كما يخبرنا بذلك الدكتور مصطفى مسلم فيقول: «ولم يظفر هذا اللون من التفسير الموضوعي بعناية القدماء، بل جاء في ثنايا تفاسيرهم الإشارة إلى بعض أهداف السور، وخاصة القصيرة منها، وكذلك التوخي لوجه المناسبة بين

16

مقاطع بعض السور، كما فعل الفخر الرازي في تفسيره الكبير، وما فعله البقاعي في "نظم الدرر"، وعبد الحميد الفراهي في كتابه: "نظام القرآن"»[1].

وهناك نوع آخر من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم متكاملا، حيث تتضافر جهود عدد من الطلبة للبحث في الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم، وإخراجه في صورة واقعية إلى حيز الوجود، وهي فكرة طيبة تحتاج إلى من يتبناها، ويدعمها ويحوطها بالعناية، لتثمر وتزهر وتكون لبنة تضاف إلى هذا المجال، كما قال الأستاذ باقر الصدر في مقدمات التفسير.

المطلب الثالث: قواعد وضوابط التفسير الموضوعي:

لقد توسع المفسرون القدماء توسعا كبيرا في عرض القضايا النحوية والصرفية، وحشوا تفاسيرهم بالعديد من المسائل التي أثقلت التفسير، بحيث تجعل القارئ يتخبط في خضم هذه الآراء والتحليلات، والمناقشات الفقهية....

كما أنهم قد حشوا كتبهم بإسرائيليات نقلوها عن أهل الكتاب، إستنادا لرخصة النبيﷺ، القائل في حديثه الشريف: "حدثوا على بني إسرائيل ولا حرج"[2]، فعجّت مؤلفاتهم بتلك القصص والروايات والأساطير التي أفسدت المعنى ووضعت بينه وبين المعنى الحقيقي كثيف الحجاب.

وما زاد الطين بلة تلك التفاسير المشوبة ببعض الأحاديث الموضوعة، وتلك الروايات الضعيفة المزعوم صحتها عن رسول اللهﷺ، والتي كثيرا ما تحيدنا عن المعنى الحقيقي لفهم القرآن الكريم.

لكل ذلك بات من الضروري البحث عن منهج ينقي ويصفي التفسير من الشوائب التي علقت به عبر الزمان، وحالت دون إبراز بعض المعاني القرآنية السامية، والتي تحمل في طيّاتها هدايات للبشر، فحاول العلماء وضع ضوابط وقواعد تعصم من كل ذلك، فاجتهدوا في إرساء بعض قواعد منهج التفسير الموضوعي، نذكر منها:

- وضع خطة منهجية تتحكم في سير التفسير، بحيث لا يخرج المفسر عنها وهو ملزم باتّباع خطواتها، وهي تلك الأطر العامة، وذلك الطريق المتسلسل المتين، الذي ينطلق من مقدمات علمية صحيحة، مستدلا على ما يعرض من تفسير من الكتاب نفسه، ومما صح عن رسول اللهﷺ، وعما

1 – مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، (مصدر سابق)، ص: 29.

2 – حديث رواه البخاري في كتاب التفسير، الجزء8، ص:120.

17

اجتمعت عليه الأمة وتعارف عليه المسلمون منذ بداية النزول إلى يومنا هذا، ليخلص بعد ذلك إلى نتائج حقيقية مرضية، ولأن النتائج مربوطة بمقدمات، فإن صحت المقدمات، وصح الاستدلال، صحت لزوما النتائج.

- العمل على ربط معاني القرآن بما ورد في السنّة الشريفة، والعمل على التخلص من الروايات الضعيفة الواهية المنكرة، حيث أن الحديث الشريف يساعد على ترجيح بعض مدلولات، سيقت لها الألفاظ التي تحمل أكثر من معنى.

- مراعاة القراءات التي تمكّن المفسر من اختيار بعض الوجوه المحتملة وترجيحها على بعض، لأن القرآن الكريم له عدة قراءات صحيحة متواترة، وهي متلاقية في معانيها، مقتربة في مدلولاتها، وربما تكمل الأخرى قرينتها، أو توجهها في المعنى، مثل ما جاء في آية الوضوء من سورة المائدة[1]، حيث قرأت كلمة "أرجلكم" بالفتح وبالضم، فعطفت الأولى على الغسل، وعطفت الثانية على المسح، فشرع بذلك غسل الرجلين، وكذا مسحهما. وما جاء في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾[2]، فقُرأت بإثبات الألف وطرحها، أي "لامستم" و"لمستم" فالأول كناية على الجماع، والثانية على اللمس فقط[3].

- التخلص من الإسرائيليات، والتقليل منها، إلاّ عند الضرورة، ولا تكون إلا فيما وافق القرآن والسنة، وفي حيز ضيّق جدا، كوصف جلد بقرة، أو اسم كلب، أو قرية قد اندثرت، أو شيء من هذا القبيل، والذي لا يمد إلى المعنى بصلة، ولا يمس بقدسية هذا الكتاب ومعانيه الشريفة.

- معرفة أسباب النزول والمكي منها والمدني، ومعرفته عون على فهم النص القرآني وحو التنزيل، إذ به تترجح كثير من المعاني، وتتضح أفهام جديدة للمفسر على ضوء ما يستخلصه من أسلوب الخطاب المستعمل في فترات زمنية معينة متباينة فيما بينها، وفي أماكن مختلفة، وربطها بحوادث ومناسبات وربما بأشخاص معينين، فقد يصرح بهم القرآن الكريم، وقد يبهمهم، كما

---

1 – المائدة: آية6. وهي قوله تعال: ﴿يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين﴾

2 – سورة النساء: آية43.

3 – الحجة في القراءات السبع، للإمام ابن خالويه، تحقيق: د.عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، ط2، 1397هـ/1977م، بيروت. ص: 124.

18

حدث مع الملك بن مروان حينما استشكل عليه فهم قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿ولاَ يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا...﴾[1] فقال له ابن عباس رضي الله عنه أنها نزلت في أهل الكتاب. ومثل هذا كثير في القرآن.

- معرفة الناسخ والمنسوخ، وتقتضي معرفته معرفة المتقدم في النزول من المتأخر، لكي لا يقع المفسر أو المفتي مأزق الإفتاء بنص منسوخ، فيَضل ويُضل، كأن يفتي بإمساك زوجة جاءت بفاحشة مبينة في بيتها حتى يدركها الموت، أو يجعل الله لها سبيلا، وهو لا يدري أنها نسخت بآية اللعان.

- معرفة القصص القرآني؛ إذ أن التفصيل في القصص التي جاءت في القرآن مجملة، قد يعين المفسر على ترجيح رأي على رأي، لأنه يعطي للمفسر صورة متكاملة حول جزئيات القصة، ويجعله يعيش ذلك الجو الذي تصوره تلك الأحداث الدائرة في فلك القصة، فتمكنه من استخراج هداياها، واستنباط عضاها، وعبرها، المنبثة في ثنايا جزئياها، والتي تعود بالفائدة على المتدبر والتالي لكتاب الله، إضافة إلى استمتاع القارئ لهذه القصة وتفسيرها بتلك المشاهد التي تصورها من خلال جزئياها، فتبقى متعلقة بذهنه، وتؤثر في نفسه، كلما ذُكرت هزت نفسه، وحركت مشاعره، وزادت في ورعه وتقواه.

هذه أهم ضوابط منهج التفسير الموضوعي بصورة عامة كما نراها، وأمّا من كان له الفضل في تفصيل هذه القواعد، فهو الشيخ حبنكة الميداني بدون منافس، حيث يذكر في كتابه: "قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله" حوالي أربعين قاعدة كلها تصب في هذا المعنى من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، وهي قواعد شملت في تقديرنا جميع ما يحتاج إليه هذا المنهج من الحيلولة دون وقوع المفسر في الزلل والخطأ، فضلا عن توضيح وتجلية المعنى المراد من آيات الكتاب العزيز، بل إن الشيخ في اعتقادنا لم يترك شاردة ولا واردة إلا أشار إليها، فكان كتابه بحق جامعا مانعا لهذه الضوابط والقواعد، التي تنتظر من يأخذ بها ويطبقها، بل يحثنا صراحة على ذلك فيقول: «وفي هذه الرسالة كتبت هذه القواعد، وشرحتها بالأمثلة، وقد أكون في بعضها مسبوقا إلى كتابته أو الإشارة إليه، وقد يكون بعض المفسرين قد وضع في تصوره مراعاة بعضها، إلا أنني لم أجد من راعاها كلها مراعاة تامة في كل ما تدبر من كلام الله، كما أن بعض هذه القواعد لم يحظ بعناية

1 – سورة آل عمران، آية: 188.

19

أحد من المفسرين، وأمام الباحثين المتدربين لكتاب الله طريق طويلة، قد لا يصلون إلى غايتها مهما بذلوا من جهد وكد، إلا أنهم – من دون شك – سيكتشفون بالبحث كنوزا عظيمة من هذا التنزيل الرباني العظيم»[1] ولا بأس أن نشير إلى بعض هذه القواعد على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر:

إن أول قاعدة تناولها هذا الكتاب هي مراعاة ارتباط الجملة القرآنية بموضوع السورة، وارتباطها الموضوعي بما تفرق في القرآن المجيد[2]، وهي قاعدة نلمسها في محاولات بعض المفسرين في كشف تلك الروابط والمناسبات بين الآيات والسور، وبين مقاطع السورة كما هو الشأن في تفسير سعيد حوى، وتفسير عبد الله دراز، وضرب لهذه القاعدة أمثلة من القرآن ليستدل على صحة ما يذهب إليه، وأورد في القاعدة الثانية حديثا يدور حول الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، حيث سمّاها: وحدة موضوع السورة القرآنية[3]، وضرب لذلك أمثلة بسورة الرعد، وسورة العلق، والقيامة، وجاء حديثه في القاعدة الرابعة عن بيئة نزول النص البشرية، والمكانية، والنفسية، والفكرية، والفردية، والاجتماعية[4]، وهي أبعاد متعلقة بجو النزول وأسبابه، ويختم هذه القواعد بما أوردنا سابقا عن القراءات، ويحددها في القراءات العشر، ويعني بها مراعاة القراءات المتواترة، مستدلا على كل قاعدة يذكرها في الكتاب بأمثلة من القرآن الكريم، يسرد نماذج ومقاطع لبعض التفسيرات التي تصب في الموضوع المطروح، وتخدم المعنى المقصود، وفيما ذكرنا من القواعد والضوابط كفاية، والله المستعان.

1 – قواعد التدبر الأمثل، خنكة الميداني، الطبعة الثالثة، دار القلم، سنة: 2004م، ص: 12.

2 – المصدر نفسه، ص: 13.

3 – المصدر نفسه، ص: 27.

4 – المصدر نفسه، ص: 53.

20

المحاضرة الثالثة

الحديث الموضوعي وطريقة الدراسة فيه

1-تعريف الحديث الموضوعي لغةً واصطلاحًا:

الحديث الموضوعي اصطلاح مُستحدَث، وهو مركَّبٌ وصفيٌّ يحتاج لبيان جُزأيه قبل محاولة تعريفه[1].

أما" الحديث"، فهو في اللغة" :نقيضُ القديم."[2]

والحديث :هو اسم من التحديث، وهو الإخبار، ثم سُمِّي به قولٌ، أو فعل، أو تقرير نُسِب إلى النبي – عليه الصلاة والسلام – ويُجمَع على" أحاديث "على خلاف القياس[3].

وقال الحافظ ابن حجر:

المراد بالحديث – في عُرْف الشرع –: ما يُضافُ إلى النبيِّ – صلى الله عليه وسلم – وكأنه أُريدَ به مقابَلة القرآن؛ لأنه قديم[4].

ولكن الحافظ قال في "شرْح النُّخبة:"

الخبَر عند علماء الفن مرادِف للحديث، وقيل: الحديث: ما جاء عن النبي – صلى الله عليه وسلم – والخبر: ما جاء عن غيره، ومن ثَمّة قيل لمن يشتغِل بالتواريخ وما شاكَلها: الإخباري، ولمن يشتغِل بالسنة النبوية: المُحدِّث[5].

وأما" الموضوعي"، فهو نِسبة إلى" الموضوع"، مأخوذ من" الوضْع"، وهو ضد الرفع، وهو لفظ يدلُّ على الخفض للشيء والحطِّ له[6].

وفي" المعجم الوسيط :"الموضوع: المادة التي يَبني عليها المُتكلِّمُ أو الكاتب كلامَه[1].

---

[1]- حديث الموضوعي دراسة نظرية"؛ رمضان إسحاق الزّيّان، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد العاشر، العدد الثاني، ص 209.

[2]- يُنظر: "لسان العرب"؛ لابن منظور، مادة: حدّث 2/796، "لسان العرب"؛ لابن منظور 711هـ، تولّى تحقيق "لسان العرب" نُخبة من العاملين بدار المعارف، هم الأساتذة: عبدالله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، مصر، د.تخ.

[3]- معجم الكليات"؛ لأبي البقاء الكفوي، ص 370.

"معجم الكليات" لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي 1094هـ، قابَلَه على نسخة خطيَّة، وأعدَّه للطبع ووضَع فهارسه: د. عدنان درويش ومحمد المصري. مؤسسة الرسالة – بيروت، ط2: 1419هـ/ 1998م.

[4]- فتح الباري بشرح صحيح البخاري"1/261.

"فتح الباري بشرح صحيح البخاري"؛ للحافظ ابن حجر العسقلاني 852 هـ، طبعة مُصحَّحة على عدة نُسخ، وعن النسخة التي حقَّق أصولها وأجازَها: الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز.

دار الفكر – بيروت: 1414هـ/1993م.

[5]- نزهة النظر في توضيح نُخْبة الفكَر"؛ للحافظ ابن حجر العسقلاني ص 35.

"نزهة النظر في توضيح نُخْبة الفكَر في مصطلَح أهل الأثر"؛ للحافظ ابن حجر العسقلاني 852 هـ، تحقيق وتعليق: د. عبدالله بن ضيف الله الرحيلي، ط1: 1422هـ/2001م.

[6]- أ.د. عبدالرحمن البر: معنى الحديث الموضوعي وفوائد دراسته1؛ موقع البصيرة: الموقع الشخصي للأستاذ الدكتور عبدالرحمن البَر.
http://www.alabaserah.com/news.php?newsid=274.

و"الموضوع: هو عبارة عن المبحوث بالعِلم عن أعراضه الذاتية[2]."

مما سبَق تتبيَّن معاني الحديث الموضوعي من جِهة الاصطلاح؛ حيث إنه "اصطلاحٌ جديدٌ شاع على ألسنة العلماء حديثًا، وأُطلِق اسمًا على مادة تُدَرَّس في كليات أصول الدين بأقسامها المختلفة، وصار عنوانًا للونٍ من ألوان دراسة الحديث الشريف[3]."

وقد وضع عددٌ من العلماء المعاصرين المشتغلين بعلم الحديث تعريفاتٍ مختلفةً له.

فهو" :جمْع الأحاديث المتعلّقة بموضوع واحد مع محاولة تصنيفها تصنيفًا جزئيًا، مع التركيز على التأليف بين المتعارِضات إن وجدت، تارة بالجمع، وتارة بالنَّسخ، وتارة بالترجيح، وتارة بالتوقف[4].

أو" الأحاديث التي تعدَّدت أساليبُها وأماكنُها، ولها جِهة واحدة يمكن أن تَجتمِع فيها، سواء عن طريق المعنى الواحد، أو الغاية الواحدة.[5]"

أو هو "علمٌ يبحث في القضايا التي تناوَلتها النصوص والأحاديث المتَّحدة في المعنى، أو في الغاية، أو فيهما معًا، وذلك بجمْعها من مصادرها المتعدِّدة، ووضْعها في مكان واحد، والنظر فيها على هيئة مخصوصةٍ، بشروط مخصوصةٍ؛ لبيان معانيها، واستخراج عناصرها، والرَّبط بينها برباطٍ جامع.[6]"

الدراسة الموضوعية تعني جمع الأحاديث المتعلّقة بموضوع محدَّد من مصادرها المتعدِّدة، ثم تحليلها ونقدها سنداً ومتناً وموازنة دلالتها والبحث في تعارضها، ثم بذل الجهد في استنتاج النظرية العامة التي تنتظم تفاصيلها، لتكون صالحةً للتطبيق والعرض، على أنها من أصول المنهج النبوي.

أو" هو علم يبحث في الموضوعات التي تناولتها السَّنة النبوية الشريفة، والمتحدة معنىً، أو غاية، من خلال جمْع أحاديث الموضوع من مصدر حديثي أصلي، أو عدة مصادر، أو في ضوء السُّنة النبوية، بحيث يقوم الباحث بتحليل النصوص الحديثية المقبولة ومقارنتها ونقْدها ثم محاولة ربْطها للوصول إلى روح النصِّ النبوي من أجل تطبيقه في الواقع المعاصر[7].

---

[1]- المعجم الوسيط" مادة وضع، ص (1040.(المعجم الوسيط» جمهورية مصر العربية: مجمع اللغة العربية: الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث. ط4: 1425هـ/2004م. مكتبة الشروق الدولية.

[2]- معجم الكليات" لأبي البقاء الكفوي ص 868.

[3]- أ.د. عبدالرحمن البَر: معنى الحديث الموضوعي وفوائد دراسته، مرجِع سابق.

[4]- محاضَرات في الحديث الموضوعي للشيخ أ.د. السيد نوح.

منتديات صناعة الحديث: http://www.hadiith.net/montada/showthread.php?t=208

[5]- يُنظر: تعريف التفسير الموضوعي للدكتور عبدالستار سعيد في كتابه "المدخل إلى التفسير الموضوعي" ص 19–20، نقلاً عن: أ.د. عبدالرحمن البَر: معنى الحديث الموضوعي وفوائد دراسته، مرجع سابق.

[6]- أ.د. عبدالرحمن البَر: معنى الحديث الموضوعي وفوائد دراسته، مرجع سابق.

[7]- الحديث الموضوعي دراسة نظرية"؛ رمضان إسحاق الزّيّان، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد العاشر، العدد الثاني، ص 214.

ومن التعريفات للحديث الموضوعي: بيان موضوع ما في ضوء السّنة النبوية من خلال مصدر حديثي أو عدة مصادر.

2-أنواع الحديث الموضوعي ومناهج دراسته: يمكن تقسيم الحديث الموضوعي إلى نوعين:

الأول: الحديث الموضوعي العام:

وهو الذي بين أطراف موضوعه وحدة في الغاية فقط، لا في أصْل المعنى.

بمعنى أن هذا الموضوع يكون له أصل في الأحاديث، ولكن تحته قضايا كثيرة مُتعدِّدة، لا يربِط بينها إلا وحدة الغاية، وهي وحدة محقَّقة، حتى وإن كانت بعيدة.

من ذلك مثلاً قضية الأدب، فهي تشمَل الأحاديث التي تتناوَل الأدب النبوي، في قضايا متعدِّدة، يَجمَع بينها أنها من جملة الأدب.

الثاني: الحديث الموضوعي الخاص:

وهو الذي يقوم على وَحدة المعنى والغاية بين أطرافه وأفراده، فتكون الرابطة بينهما خاصة وقريبة.

من ذلك كل موضوع خاصّ من الموضوعات التي تناوَلها كتاب" الأدب المفرَد "للإمام البخاري، وكذلك موضوع "آداب النيَّة والإخلاص"، وموضوع" آداب المُجالَسة"، ونحو ذلك.

3-أهمية البحث في الحديث الموضوعي: يقول الإمام أحمد)) :إذا لم تجمع طرقه لم تفهمه, والحديث يفسر بعضه بعضاً((من خلال هذا الأثر المنقول عن الإمام أحمد يتبين مدى الأهمية البالغة لهذا النوع من البحث، فالروايات تفسر بعضها بعضا، فقد يرد اللفظ مبهما في رواية وتعينه رواية أخرى، وقد يرد مجملا في رواية وتبينه رواية أخرى، وهكذا لو كان عاما في رواية فقد يرد تخصيصه في رواية أخرى، ومن خلال هذا النوع من الدراسة للسنة يتسنى للباحث الوصول إلى رؤية مستوعبة وشاملة، بعيدا عن النظرة الجزئية الناقصة التي قد تقود الباحث إلى الجزم بنتائج خاطئة، وشراح الحديث يولون هذا الأمر عناية فائقة، ومن أشهر من يهتم بجمع الروايات ودراستها الحافظ ابن حجر في فتح الباري، وهو قريب من مبحث الحديث الموضوعي.

4-فوائد البحث في الحديث الموضوعي:

- إبراز دور السنة النبوية ومكانتها وعالميتها من خلال تناول المواضيع المختلفة في ضوئها، وتقديم كثير من الحلول للمشكلات في الحياة العامة، من خلال السنة النبوية.

- النظرة التكاملية للنصوص، بحيث يتمكن الباحث من الجمع بين ما ظاهره التعارض، ومعرفة الناسخ من المنسوخ، والمطلق والمقيد، والعام والخاص، والاطلاع على أسباب وروده، والملابسات والظروف التي قيل فيها

الحديث النبوي، بحيث تتكون لدى الباحث نظرة كلية للموضوع الواحد في ضوء الأحاديث المجموعة، وهذه هي الثمرة الحقيقية، والخلاصة المرجوة من النظر في أحاديث السنة.

-الاستجابة للتطور العلمي المعاصر، وإرجاع الناس إلى مصادر الاستدلال والتلقي بطريقة مبتكرة تتناسب مع طرق البحث ووسائله المتجددة.

-الوقوف على مقاصد النصوص وعللها الشرعية، وحِكَمِها التشريعية، فإن الروايات إذا اجتمعت تبين للناظر فيها المغزى الذي ترمي إليه تلك النصوص، وهذا يعين الباحث على توجيه أحكامها بناء على مقاصدها وعللها .

والغرض من البحث في هذا المحور دراسة مجموعة من المواضيع المهمة في ضوء الأحاديث النبوية، والنظر في غاياتها ومقاصدها والاستفادة من هديها، ولا يدخل في البحث النظر في الأسانيد وأحوال الرواة والحكم على الروايات، إذ الشأن أن الأحاديث التي تورد في المحور تكون في دائرة المقبول مع تحاشي الاستشهاد بالضعيف الذي لا ينجبر ضعفه ، وكذا الموضوع من باب أولى.

5-طرق البحث في الحديث الموضوعي: للبحث التطبيقي في الحديث الموضوعي طريقتان:

الأولى: منهج الدراسة الموضوعية التي تَعتمِد على جمْع أحاديث الموضوع الواحد من مصادر مُحدَّدة من كتُب السُّنة، ومن ثم دراستها وتحليلها.

الثانية: البحث في موضوع حديث واحد بجمع طرقه، ومقارنة ألفاظه، وتحليل نصه، حيث تبدأ الدراسة بموضوع الحديث وتنتهي بربط موضوع الحديث في الواقع المعاصر لتحقيق هدف الدراسة الموضوعية.

6-المصنفات في هذا النوع من الدراسات:

جذور البحث في الحديث الموضوعي قديمة، فكتب الحديث التي ألفت على أساس موضوعي كالجوامع والسنن، مثل صحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود، والنسائي وغيرها، نجدها مصنفة بحسب الأبواب، وتجمع الأحاديث على أساس رابط موضوعي، فيجمعون أحاديث الصلاة على حدة، وكذا أحاديث الزكاة والصيام والحج والجهاد والنكاح وهكذا.

ونجد أيضا من الكتب والأجزاء الحديثية التي صنفت لجمع أحاديث موضوع واحد، ففي العقائد: كتاب التوحيد لابن خزيمة، وشعب الإيمان للبيهقيّ، وفي الزهد: كتاب الزهد لأحمد، والزهد لابن المبارك، وفي الآداب: كتاب الأدب المفرد للبخاريّ، وذم الحسد لابن أبي الدنيا، وفي الجهاد: كتاب الجهاد لابن المبارك، وغيرها.

ومن كتب الحديث التي تعتمد في الجمع على أساس الموضوعات والمعاني: "مفتاح كنوز السنة "لأرنولد فنسنك ومجموعة من المستشرقين، فيضع عنوانا من كلمة واحدة كرابط موضوعي لمجموعة من الأحاديث، مرتبا للموضوعات على حروف المعجم، ويدرج تحت العنوان الرئيسي مجموعة من الفقرات والعناوين الفرعية، ثم يضع تحت كل عنوان ما يناسبه من أحاديث وروايات الباب بالرمز إليها وإلى مظانها.

وقريب منه: "المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبويّ" للمستشرق ونسنك وآخرين، فهو ترتيب موضوعي للأحاديث على حروف المعجم أيضا.

لكن كل هذه الكتب السابقة وإن كانت مصنفة على أساس موضوعي فهي مختصة بالجمع فقط دون التعرض لمعاني والأحكام المستفادة من متونها، وإن كان بعضها قد يشير أحيانا إلى فقه الحديث كالترمذي في جامعه، لكنها قليلة وليست هي مقصود المصنف.

7-الجديد في بحث الحديث الموضوعي: الجديد في بحث الحديث الموضوعي أنها كتبت بحوث ورسائل كثيرة مواضيع من خلال السنة، فقدموا دراسات موضوعية مستوعبة الكلام عن أحوال متونها من حيث العموم والخصوص، والإطلاق والتقييد، والناسخ والمنسوخ، ورد المحكم منها إلى المتشابه، وما يلحق بذلك من الأحكام والهدايات المستنبطة من متونها، والربط بينها برابط موضوعي واحد.

وقد كتبت رسائل علمية في الجانب التأصيلي لهذا النوع من العلم، لضبط مفهومه، ونشأته، وأهميته، وطرق البحث فيه، وبيان جهود السابقين والمعاصرين في إبراز هذا العلم، ومن أبرز هذه الرسائل التأصيلية:
-الحديث الموضوعي دراسة تأصيلية تطبيقية، رسالة كتوراة للباحث خالد الشرمان.

-الحديث الموضوعي دراسة نظرية، للباحث رمضان الزيان.

-"الحديث الموضوعي" للدكتور فالح الصغير، وهو عبارة عن حلقات منشورة على موقعه "شبكة السنة النبوية وعلومها."

وغيرها من البحوث والمقالات التأصيلية للحديث الموضوعي.

وأما البحوث في الجانب التطبيقي للحديث الموضوعي فأكثر من أن تحصى، فمنهم من جمع أحاديث الجهاد مثلا، أو جمع أحاديث الربا، أو أحاديث الجنايات... وهكذا، أو يدرس موضوعا ما من خلال السنة النبوية، مثل أن يدرس موضوع "الكرم" أو "الأمن" من خلال أحاديث كتب السنة، أو من خلال أحاديث كتاب معين من كتب السنة

وهذا يعني أنَّ الدِّراسة الموضوعية للسنة تتألف من أربع خطوات:

أولاها: اختيار الموضوع، ولا تُقبل فيها إلا مواضيع متصلة بواقع الحياة واحتياجات الناس، وتأتي المجالات التربوية الاجتماعية والاقتصادية المعاشية والسياسية في مقدمتها، ولا يقبل فيها المواضيع التقليدية ولا المواضيع العامة والشاملة كالبحث في السيرة النبوية مطلقاً، والسَّبب وراء ذلك أنَّ البحث الموضوعي ينطلق من إشكالية واقعية محددة ضمن اهتمامات العصر ومواضيعه الساخنة، فيدرس فيها الباحث جميع ما أثير عنها، ويستوعب كل ما قيل فيها، ثم يعرض ما تحصَّل لديه من أفكار على الأحاديث النبوية، وعليه فإن من سيكتب في حق الطفل في التعلم في السُّنة أو الدستور النبوي أو المواطنة في العهد النبوي، سيقرأ جميع الوثائق والتشريعات التي سَنتها الأنظمة الوضعية، ويطلع على النظريات والأفكار التي عالجتها، ويتمكّن من تفاصيلها وجوانبها المضيئة والمظلمة، لتكون هذه الدراسة معيناً مهماً عند عقد الموازنات، ثم يتوجه إلى الأحاديث النبوية مفتشاً جامعاً لكل ما يتصل بموضوعه وفكرته، وهي المرحلة الثانية.

ثانيها: جمع المادة الحديثية من خلال استقراء تام لمصادر السُّنة المعتمدة، والتوسُّع في ذلك مع التأني والصبر، والاعتماد على المطبوع والمخطوط، والاستفادة من البرمجيات الإلكترونية ومواقع الشابكة ومن سائر أدوات البحث العلمي الحديثة، ويلاحظ هنا أنه كُلَّما كان الموضوع دقيقاً محدّداً فسيسهل التوسع فيه عمودياً في مصادر السنة المتنوعة. فالبحث في "حق المرأة في التصويت في السنة والسيرة" أفضل من البحث في حقوق المرأة عموماً "في الصحيحين فحسب"، فنتائج البحث الأول ستكون أكثر عمقاً وتحديداً. وفي هذه المرحلة تبرز قدرات الباحثين في تتبع واستقراء الأحاديث المتعلّقة بالموضوع، مهما خَفيت أو دَقَّت درجة اتصالها والصبر على ذلك.

ثالثها: الدراسة التحليلية للأحاديث التي تجمعت لدى الباحث، والبحث في أسانيدها ورجالها من جهة، وفي متونها وألفاظها من جهة ثانية، من حيث الثُّبوتُ والدّلالةُ، ويمحّص الباحث النظر في الأحكام النقدية التي أطلقها رجال الجرح والتعديل والعلل على الأحاديث، ولا بأس أن يطيل الباحث هنا النَّفس في قضايا الصحة والضعف والمتابعات، والرفع والوقف، وزيادات الثقات والشذوذ والإدراج، وإزالة الإشكال والتعارض الظاهري في دلالاتها، كل هذا ضمن حدود ما يخدم غاية بحثه وهو متون ودلالات الأحاديث، بمعنى أن يلجأ الباحث إلى أدوات المحدثين وما تقتضيه أصول الصناعة الحديثية، بحيث يرجِّح من الأسانيد والألفاظ والدلالات بحسب تلك الأدوات، فيكون واضحاً أمامه "القدر المشترك والمتفق" من الروايات والألفاظ التي رجّحها الباحث، بعد أن دفع التعارض والإشكال، وربط الأحكام بعللها، فتكون النتيجةُ حفظَ الوحدة الموضوعية للحديث النبوي.

رابعها: بناءُ النظرية الشاملة التي ينتظم عقدها جميع المعاني السالفة، واستنتاجُ الموقف النبوي العام الذي تقع تحته جميعُ التَّفاصيل، وفهم الرابط الذي يجمع المفردات التي استقراها الباحث واعتمد عليها في المرحلة الثانية والثالثة، فهي المرحلة الختامية والأهم في العمل الموضوعي، والتي سيربِطُ فيها الباحثُ نتائجَ بحثه الحديثي الموضوعي، بمنطلقه الأول من النظريات الحديثة والإشكاليَّات التي ابتدأ بحثه منها، وسيعرض نتائجه التي خلص إليها، ويوضِّح الإجابة الموضوعية المستمدة من الهدي النبوي عن تلك الإشكاليّات، ويعقد الموازنات فيما بينها،

مستفيداً من آراء من سبقه من الفقهاء والمحدثين والشُّراح، فتكتمِلُ بذلك عناصرُ البحث، وتصل الرحلة إلى محطتها النهائية.

ولعلَّ هذه المرحلة هي أمتع المراحل، لأنها مرحلة جني الثمار وحصاد الجهود، فيها يتنقل الباحث من النظر إلى التطبيق، ومن القواعد إلى النتائج، لذا فإن الحذر الشديد والتأني في إطلاق الأحكام مطلوب في هذه المرحلة، بأكثر مما هو مطلوب في سائر المراحل، لأن الخطأ في القواعد والأصول أخطر من الخطأ في التفاصيل والجزئيات، يجب عليه التعمق في مطالعة أدلتهم ومسالك أقوالهم، والعودة إلى أهل العلم واستشارتهم، وقبلها الاتكال على الله والنية السليمة في خدمة الحق والدين وأهله، فكم ترك الأول للآخر!.

القسم التطبيقي

المحاضرة الأولى:

دليل الآفاق ودليل الأنفس في القرآن الكريم

-دراسة موضوعية-

(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)

تمهيد:

أنزل الله تعالى القرآن الكريم هدى للناس أجمعين ليخرجهم من الظلمات الى النور بإذن ربهم ويهديهم سبل السلام فعالج كل مشاكل الانسانية وبين لهم الهدف من الوجود بل عرف الخلق بأصل وجوده وغايته وحدد له صلته مع ربه وخالقه وعلمه الحقوق والواجبات التي بينه وبين موجده وبينه وبين الخلق.

ولم يترك الناس حيارى في ما يؤمنون به وما يصلح لهم وما يكون لهم طريقا لما يبتغونه في الحياة الدنيا وفي الاخرة مع أنه قد ميز الانسان على باقي المخلوقات بالعقل وأمره بإعماله في التفكر والتدبر والامعان. قل سيروا في الأرض.....وكم من آية في السموات والارض يمرون عليها.....أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت....أو لم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا.....حيث ذكرت آيات التفكر والتدبر في القرآن الكريم ولقد جاء في القرآن الكريم الحث على التفكير في مواضع عديدة: حيث وردت مادة: (التفكر) في حوالي تسعة عشر موضعاً في القرآن الكريم[1]. وخُتمت سبع آيات[2] من كتاب الله بقوله – تعالى -: {لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} في إشارة إلى أن هذه الآيات العظيمة التي تَذْكر قبلها: لا ينتفع بها إلا ذوو العقول المتفكرة. وفي مواضع أخرى جاء التشنيع والتوبيخ على القوم الذين عطلوا عقولهم وتفكيرهم. كما في سورة الحج: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: 46].

وأثنى الله تعالى على الذين يذكرون الله قياما وقعودا بأنهم يتفكرون في خلق السموات والأرض لأجل معرفة عظمة الخالق ووجوب الخضوع له. ١ تفكر و ٢ تدبر.

وقد استدل الله تعالى على وجوده بأكثر من دليل وجعل آيات وبراهين وسنن في الكون للاهتداء بالرغم من أنه قد أنزل شرعا مبينا وأيده بدلائل حسية ومعجزات نبوية وخوارق كونية الا أن الانسان كان أكثر شيء جدلا وإنكارا وجحودا. وربما بعض الناس شاهد المعجزات وعاصر النبوات ولكنه أيضا لم يؤمن فلماذا؟

---

[1]- ينظر كتاب: تدبر القرآن بين النظرية والتطبيق. لرقية العلواني: صفحة: (19).

[2]- كما في سورة يونس الآية (24) والرعد الآية (3) والنحل في موضعين الآية (11) و (69). والروم الآية (21). والزمر الآية (42). والجاثية الآية (13).

أن دلائل الآفاق ودلائل الأنفس لا يختلف فيها اثنان الا في حدود نسبية المادة العلمية المكتشفة أو في تفاوت العلماء في إدراك الأسباب والقوانين وكشف السنن والبراهين على حكمة الصنع ودقة الخلق بل حتى في أبسط صورة لمظاهر الطبيعة .

تعريف دليل الآفاق والأنفس

معنى الدليل: في اللغة والاصطلاح

الدليل لغة: صيغة مبالغة من اسم الفاعل (دال) وهو من دل يدل على الشيء دلاً. واسم المصدر منه (دلالة) بتثليث الدال.(وهو ما يتوصل به إلى معرفة الشيء) كدلالة اللفظ على المعنى. وهو المرشد وهو الناصب والذاكر وما به الإرشاد. ومنه قوله تعالى :(مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ) فجعل الله سبحانه وتعالى انكسار عصاه سببا لظهور موته. والأصوليون يعبرون عن المعنى اللغوي بعبارة مقاربة فيقولون :(هو المرشد والكاشف).

والدليل اصطلاحا:

"ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى مطلوب خبري".

(ما يمكن التوصل): احترز به مما لا يمكن التوصل به إلى معرفة الأشياء كالكلام المهمل واللغو والجمل غير المفيدة.

(بصحيح النظر):احترز به مما يمكن المستدل التوصل به على مقصوده. ولكن بنظر واستدلال فاسد كاستدلال المعتزلة على نفي رؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة بقوله تعالى:(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ). ويدخل في ذلك المقدمات الفاسدة .

(إلى مطلوب خبري)قيد لبيان دخول الأمارات (وهي الظنيات) في مسمى الدليل خلافاً للمعتزلة فقد قصروا مسمى الدليل على ما أفاد القطع وهذا ليس بصحيح :لأن الله تعالى تعبدنا بالقطع فيما أفاد القطع وتعبدنا بالظن فيما أفاد الظن. فالموصل إلى المطلوب الخبري إن كان قطعيا سمي دليلاً فكذلك إذا كان ظنيا سمي دليلاً أيضاً إذ لا فرق بينهما كل منهما مقصود في نفسه وواقع التكليف به على حسب حاله.

قال الأصوليون لابد للمستدرك من دليل ونظر وعلم. قال الإمام أحمد الدال هو الله. والدليل هو القرآن والمبين هو الرسول صلى الله عليه وسلم والمستدل أولو العلم. هذه قواعد الإسلام والنظر هو الفكر لمعرفة مطلوب من تصور أو تصديق. والعلم وهو حكم الذهن الجازم المطابق الموجب فلا طريق إلى معرفة الله وإلى الوصول إلى رضوانه والفوز بقربه ومجاورته في الآخرة إلا بالعلم النافع الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه فهو الدليل عليه وبه يهتدي في ظلمات الجهل والشبه والشكوك ولهذا سمى الله كتابه نوراً لأنه يهتدى به في ظلمات الجهل والوهم قال الله تعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} .

ففي المسند للإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ان مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يهتدى بها في ظلمات البر والبحر".

الفرق بين الدليل وما يشبهه من الألفاظ:

ا/الحجة :

لغة :هي ما يدفع به الخصم من حجه .يحجه إذا غلبه .

اصطلاحا: ما دل . على صحة الدعوة.

وقد قيل :إن الحجة والدليل بمعنى واحد فلا فرق بينهما .وإليه ذهب كثير من الأصوليين كالقاضي أبي يعلى ،وإمام الحرمين .وأبي الوليد الباجي .وابن حزم.

وفرق بينهما" أبو المحاسن الروياني في كتابه بحر المذهب" من وجهين:

أحدهما: أن الدليل ما دل على مطلوبك. والحجة (الأشياء التي تدفع عنك الزلل) ما منع من زللك.

والثاني: الدليل ما دل على صوابك .والحجة ما دفع عنك قول مخالفك. أ.هـ

2/البرهان:

لغة: من بره يبره إذا أبيَض فكأن الشيء في قيام حجته يبيض ويتضح. والنون في آخره أصليه .وقيل :زائدة.

وقال الأزهري والزمخشري :برهن مولدة (دخيلة) لو قالوا معربة أهون لأن القرآن فيه معرب.

والبرهان في اصطلاح الأصوليين: ما فصل الحق عن الباطل وميز الصحيح عن الفاسد بالبيان الذي فيه.

والبرهان في اصطلاح المنطقيين: هو القياس المؤلف من المقدمات اليقينية سواء كانت ابتداء (وهي الضروريات) أم بواسطة (وهي النظريات التي تنتهي إلى البدهيات).

ومن هنا قيل :إن الحجة أعم من البرهان لاختصاصه عندهم بالمقدمات المفيدة لليقين.

وقيل :بل البرهان أعم من الحجة :لاشتماله جميع أنواع الحجج ذكره "السجستاني". وقيل: هما بمعنى واحد. المشهور هو القول" الأول".

3/البينة :

لغة :على وزن" فعيلة" من البينونة وهي الانقطاع والانفصال .أو من البيان.

اصطلاحا: اسم لكل ما يبين الحق ذكره" ابن القيم في إعلام الموقعين".

والظاهر أن البينة والحجة بمعنى واحد كما صرح به "السرخسي وغيره". فإن الحجة هي المبينة للحكم ولذلك يقال لبينة الرجل :حجة.

قال" أبو البقاء الكفومي في كتابه –معجم في المصطلحات والفروق اللغوية-الكليات في شرح ألفاظ.....: (ما ثبت به الدعوى من حيث إفادته للبيان يسمى بينة. ومن حيث الغلبة به على الخصم يسمى حجة)ا.هـ

4/الاية:

لغة :العلامة الظاهرة واشتقاقها من أي لأنها تبين أياً عن أي يعني تبين شيئاً عن شيء.

اصطلاحا: اسم لما يوجب العلم قطعاً عند التأمل.

ولهذا سميت معجزات الرسل آيات ..هكذا ذكره" السجستاني والسرخمي".

وبناءاً عليه تكون الآية كالبرهان وأخص من الحجة والدليل: لشمولها الأمارة والدليل القاطع.

وقيل: بل الآية تشمل ما أفاد الظن وأفاد القطع فتكون في رتبة الحجة والدليل وإنما يلحظ فيها التفاوت في المعرفة بحسب التفكر والتأمل فيه وبحسب منازل الناس في العلم.

وهناك من ذكر بينهما عموم وخصوص مطلق فكل آية يستدل بها تعتبر دليلاً العكس فقد يكون الدليل حديثاً أو غير ذلك بناء على أن المراد بالاية الاية من القرآن أما الكلام السابق اللغوي والاصطلاحي تعريف للمعنى الذي يطلق على الآية غير مقيد بأية القرآن وإنما يرشد ويدل.

5/السبب:

لغة: ما يتوصل به إلى غيره .ومنه سمي الحبل سببا.

اصطلاحا: ما يكون طريقاً إلى الحكم دون أن يثبت به.

وهناك فرق بينه وبين الدليل من جهة أن السبب قد يؤثر في المسبب بخلاف الدليل فإنه قد يخلوا عن التأثير في المدلول ألا ترى أن المصنوعات دليل على الصانع –المخلوقات دليل على الخالق-ولا يجوز أن يقال: أنها سبب للصانع عز وجل فيكون الدليل أعم من هذا الوجه وقد يسمى كل منهما بالاخر من جهة أنهما طريقان للتوصل إلى الحكم.

6/العلة :

لغة: عرض يتغير به المحل من وصف على آخر كالمرض يغير حال المريض من القوة على العجز.

اصطلاحا: ما يثبت به الشيء.

ومن أسماء العلة (السبب)لأنها طريق إلى معرفة الحكم وهو يثبت عند وجودها لأنها إنما المثبت لها الشارع ومن هنا ذهب الأصوليون إلى أنهما لفظان مترادفان كل منهما يدل على ما يدل عليه الاخر.

وذهب طائفة أخرى إلى أنهما متغايران فالعلة تطلق على ما يوجب شيئا والسبب يطلق على ما يبعث الفاعل على الفعل صرح بهذا الفرق "أصحاب علم المعاني".

وقيل: بينهما عموم وخصوص مطلق .فكل علة سبب لا العكس. فيجتمعان بان كل منهما وصف ظاهر منضبط أناط الشارع الحكم به وكان مناسباً له. وينفرد السبب بما إذا كان الوصف لم تظهر مناسبته. ا.هـ

والعلة يثبت بها ما أفاد القطع وما كان مظنونا .فتلتقي في هذا مع الحجة والدليل لاسيما وقد ذكر من أسماء العلة الدليل لحصول العلم بالحكم بواسطة العلة عند إجراء القياس.

وتفارق الحجة والدليل في أن أثرهما في إثبات أصل الحكم وأثر العلة في تغييره من وصف الخصوص إلى وصف العموم .

معنى الافق:

الجمع : آفاقٌ. والأُفُقُ مِنَ الطَّرِيقِ : وَجْهُهُ. والأُفُق : النَّاحية.

الأُفُق : خطٌّ دائريّ يَرى فيه المشاهد السَّماءَ كأنها مُلْتَقِية بالأَرض. ويبدو متعرِّجًا على اليابس . ومكونًا دائرةً كاملة على الماء.

خَطُّ الأفق : ملتقى الأرض بالسَّماء. قامَ بِجَوْلَةٍ في الأُفُقِ : جَوْلَةً دائرِيَّةً اسْتِطْلاعِيَّةً. وهُوَ جَوَّابُ آفاقِهِ : كَثِيرُ الأَسْفارِ. والأُفُق مدى الاطِّلاع . يقال في المعرفة والرأي : فلان واسع الأُفق أو ضيق الأُفق كَشَفَ آفاقاً جَدِيدَةً : جَوانِبَ . مَعالِمَ . جِهاتٍ . أماكِنَ. وَسَّعَ آفاقَ مَعارِفِهِ : مَداركَهُ . وإمْكاناتِهِ هُوَ واسِعُ الأُفُقِ. بلغت شهرته الآفاق : ملأت شُهرته بقاعَ الأرض. ضرَبَ في الآفاق : تنقَّل بعيدًا. تجوّل. والآفاق: أقطار السّموات والأرض .

تعريف النفس:

النفس بين اللغة والاصطلاح وألفاظ القرآن:

بعض تعريفات النفس في اللغة:

أولًا :النفس بمعنى الروح. يقال: خرجت نَفس فلان: أي: روحه[1]. ومنه قولهم: فاضَتْ نَفسه: أي: خرجت روحه[2].

ثانيًا :النفس بمعنى "حقيقة الشيء وجملته. يقال: قتل فلانٌ نَفسه: أي: ذاته وجملته. وأهلك نَفسه: أي: أوقع الإهلاك بذاته كلّها[1]. ومنه قول صاحب الصحاح "والتكبر: هو أن يرى المرء نَفسه أكبر من غيره": أي: ذاته[2].

[1]- لسان العرب للمؤلف: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين، ابن منظور الأنصاري، الرويفعي، الافريقي.
[2]- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: للمؤلف: أبو نصر، إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي.

ثالثًا :**النَّفْس بمعنى "الحسد، والعين، يقال: أصابته نَفْسٌ: أي: عَيْن،والنافس العائن .**

رابعًا :**النفس بمعنى الدم، وذلك أنه إذا فُقِد الدم من الإنسان فَقد نفسه؛ أو لأن النَّفْس تخرج بخروجه، يقال: سالت نفسه، وفي الحديث: ((ما ليس له نفس سائلة لا يُنجِّس الماء إذا مات فيه[3].**

خامسًا :**النفس ما يكون به التمييز، والعرب قد تجعل النفس التي يكون بها التمييز نفسين: وذلك أن النَّفْس قد تأمره بالشيء وتنهى عنه، وذلك عند الإقدام على أمر مكروه، فجعلوا التي تأمره نَفْسًا، وجعلوا التي تنهاه كأنها نفس أخرى[4]**

سادسًا :**النَّفْس بمعنى الأخ[5]، وشاهده قول الله تعالى :﴿ فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾]النور: 61.[**

وجمع النفس :أنفُس ونفوس، أما النَّفَس، فهو خروج الهواء ودخوله من الأنف والفم، وجمعه أنفاس، وهو كالغذاء للنَّفْس: لأن بانقطاعه بطلانها.

تعريف النفس في الاصطلاح:

قال صاحب كتاب التعريفات: **النَّفْس هي الجوهر البخاريُّ اللطيف، الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية، وسماها الحكيم: الروح الحيوانية، فهو جوهرٌ مشرق للبدن، فعند الموت ينقطع ضوؤه عن ظاهر البدن وباطنه، وأما في وقت النوم، فينقطع عن ظاهر البدن دون باطنه.[6]"**

تعريف النفس عند العلماء المعاصرين:

ذكر العلماء المعاصرون للنفس عدةَ تعريفات: منها: أن النفس "هي جوهر الإنسان، ومحرك أوجه نشاطه المختلفة: إدراكيةً، أو حركية، أو فكرية، أو انفعالية، أو أخلاقية؛ سواء أكان ذلك على مستوى الواقع، أو على مستوى الفهم، والنفس هي الجزء المقابل للبدن في تفاعلهما وتبادلهما التأثير المستمر والتأثر، مكونين معًا وحدةً متميزة تطلق عليها لفظ (شخصية) تُميز الفرد عن غيره من الناس، وتؤدي به إلى توافقه الخاص في حياته.[7]"

معاني النفس في القرآن الكريم:

وردت (النَّفْس) في القرآن الكريم في مواضع عديدة، وتعدَّدت معانيها بحسب سياق الآيات الكريمة الواردة فيها، ومن هذه المعاني:

أولًا :**النفس بمعنى الرُّوح، ومنه قوله تعالى :﴿ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾]البقرة: 44]: أي: تتركون، ويقال: خرجت نَفْسه، خرجت رُوحه، والدليل على أن النفس هي الروح قوله تعالى :﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾]الزمر: 42]: يريد الأرواح.**

ومنه قوله تعالى :﴿ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ ﴾]الأنعام: 93]، ولك أن الكافر إذا احتُضر بشَّرته الملائكة بالعذاب والنكال، والأغلال والسلاسل، والجحيم والحميم، وغضب الرحمن الرحيم، فتتفرَّق رُوحه في جسده، وتعصى وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم :﴿ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ

---

[1]- باختصار من كتاب الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للمؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي .

[2]- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: للمؤلف: مجد الدين، أبو طاهر، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي .

3- انظر: لسان العرب.

4- المصدر السابق.

[5]- من كتاب التعريفات للمؤلف: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، (المتوفى: 816 هـ)، بإيجاز بسيط.

[7]- الموسوعة الإسلامية العامة، إشراف الدكتور محمود حمدي زقزوق.

عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾]الأنعام: 93[: أي: اليوم تُهانون غاية الإهانة، كما كنتم تكذبون على الله، وتستكبرون عن اتِّباع آياته، والانقياد لرسله.

ثانيًا :النفس بمعنى الإنسان: أي: الشخصية البشرية بكامل هيئتها، وهي الإنسان بكامل دمه ولحمه وشخصيته. وهذا كثير وغالب في القرآن، فمن ذلك الآيات التالية:

قال الله تعالى مخاطبًا الناس عامة وبني إسرائيل خاصة، بأن يحذروا يوم الحساب ويعملوا صالحًا، وأن الإنسان يأتي ربه في ذلك اليوم فردًا ولا تنفعه شفاعة الشافعين :﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾]البقرة: 48[، وقوله تعالى :﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴾]آل عمران: 145.[

وقد شاع استعمال النَّفس في الإنسان خاصة: حيث تطلق ويراد بها هذا المركَّب والجملة المشتملة على الجسم والروح[1]. ويظهر هذا في غير ما سَبَق، في قوله تعالى أيضًا :﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾]القصص: 33[. والمقصود هنا الرجلُ الذي قتله موسى عليه السلام في أرض مصر: يعني الرجل القبطي.

ثالثًا: النفس بمعنى القوى المفكرة في الإنسان (العقل):

ومنه قوله تعالى :﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾]المائدة: 116[: قال الطاهر بن عاشور في تفسيره: "والنَّفس تُطلَق على العقل وعلى ما به الإنسان إنسان، وهي الروح الإنساني، وتطلق على الذات، والمعنى هنا: تعلم ما أعتقده: أي: تعلم ما أعلمه: لأن النفس مقرُّ العلوم في المتعارف، وإضافة النفس إلى اسم الجلالة هنا بمعنى العلم الذي لم يطَّلع عليه غيره: أي: ولا أعلم ما تعلمه: أي: مما انفردت بعلمه، وقد حسَّنه هنا المشاكلة كما أشار إليه في الكشاف.[2]

رابعًا: النفس بمعنى قوى الخير والشر في الإنسان:

النفس بمعنى قوى الخير والشر لها صفات وخصائص كثيرة: منها: القدرة على إدراك الخير والشر، والتمييز بينهما، والاستعداد لهما: قال تعالى :﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾]الشمس: 7، 8[. وقال سبحانه :﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾]البلد: 10[: أي: بيَّنا له الطريقين، طريق الخير وطريق الشر، وهناك إلى جانب الاستعدادات الفطرية الكامنة قوةٌ واعية مدركة موجهة في ذات الإنسان، فمن استخدم هذه القوة في الخير وغلَّبها على الشر، فقد أفلح، ومَن أظلم هذه القوة وجناها وأضعفها، فقد خاب[3]: قال تعالى :﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾]الشمس: 9، 10.

تعريف المركب الاضافي: دليل الآفاق والأنفس:

سبق وأن عرفنا معنى الدليل والآفاق من خلال ما سبق يمكن أن نعرف هذا المركب الاضافي "دليل الآفاق والأنفس" وهو كل ما يستدل به على خبر أو علم في ثنايا هذه الآفاق وهذه النفس التي تنطوي على سنن كونية وقوانين علمية (فزيائية وكيمائية واجتماعية) ثابتة مطردة أودعها الله فيها ليستدل على وجوده ووحدانيته وعلى قدرته وحكمة صنعه.. ليتفكر فيها ويتدبرها كل عاقل ليصل من خلالها الى الإيمان بالله.

---

[1]- آفات النفس: تأليف نعيمة عبدالله البرش، إشراف الدكتور رياض محمود قاسم.

[2]- التحرير والتنوير، "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد": المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، (المتوفى: 1393 هـ)

[3]- في ظلال القرآن، المؤلف: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، (المتوفى: 1385هـ).

فضل التفكر واعمال العقل في أدلة الافاق والانفس

فضل التفكر وأهميته:

إن هذه الآيات وغيرها تُظهر للمتأمل أهمية العقل والتفكير، وأنها نعمة ربانية عظيمة اختص اللهُ بها الإنسان، وجعلها مناط التكليف، وميَّزه بها عن غيره من بين سائر الجمادات والعجماوات، وقد نص بعض العلماء على أن منزلة التفكُّر تعد من أفضل الأعمال وأشرفها[1]: «وذلك لأن الفكرة عمل القلب، والعبادة عمل الجوارح، والقلب أشرف الجوارح: فكان عمله أشرف من عمل الجوارح»[2].

ولقد كثر الحث في كتاب الله - تعالى - على هذه العبادة الجليلة[3]: نظراً لأهميتها وفضلها العظيم: حيث إنها تورث العلم والمحبة، والنور والإيمان، وهي عبادة أهل الصلاح والتقوى، يقول الحسن بن عامر: سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم يقولون: إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان: التفكر[4]

مجالات التفكر والتدبر في أدلة الافاق والانفس

سؤال الاختبار

مجالات التفكر وثماره:

جاء في التعريفات للجرجاني أن المراد بالتفكر هو: إعمال القلب في النظر في الأدلة[5].

وما يعنينا من الأدلة هنا أنها الآيات الواردة في كتاب الله - عز وجل - امتثالاً لقوله - تعالى -: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 219].

ولو تأملنا مجال التفكر في آيات القرآن لبرز لنا مجالان عظيمان أشار إليهما الإمام ابن القيّم في كتابه القيّم: مفتاح دار السعادة[6]:

فالمجال الأول هو: التفكر في الدليل القرآني: وفيه يكون التفكر في آيات الله المسموعة التي حث الله - عز وجل - على التفكر فيها وتدبُّرها في أكثر من نص في القرآن الكريم كقوله – تعالى -: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]. وقوله - تعالى -: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21]: وذلك أن المرء يتفكر في هذه الأدلة حين سماعها أو تلاوتها، وما تتضمنه من دلائل باهرة تحث على توحيد الله والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

ويتفكر أيضاً فيما جاء فيها من معجزات ودلائل وبشارات ونذارات وعبرة وأحكام، ونحوها، ويتفكر في معجزة ألفاظه، وعظمة أحكامه، وقوة حججه وبراهينه... إلخ.

---

[1] - يقول الحسن - رحمه الله تعالى -: (إن من أفضل العمل: الورع والتفكر). ينظر: (الزهد، لابن المبارك، صفحة: (96).

[2] - مفتاح دار السعادة: (180/1).

[3] - ينظر إحياء علوم الدين: (423/4).

[4] - تفسير ابن كثير: (185/2).

[5] - التعريفات، للجرجاني، ص: (167).

[6] - ينظر مفتاح دار السعادة: (187/1).

فهذا التفكر يورث في القلب محبة الخالق وتعظيمه، وإخلاص العبادة له، والتوكل عليه، وزيادة الإيمان واليقين، وغير ذلك من مقامات العبودية وأعمال القلوب.

والمجال الثاني: **التفكر في الدليل العياني: وهو آياته المشهودة**، ولقد أثنى الله - عز وجل - على من يتفكر في ذلك، فقال – تعالى -: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ 190 الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران: 190 - ١٩١].

وقد ثبت في صحيح ابن حبان وغيره مرفوعاً: «لقد نزلت عليَّ الليلة آيةٌ وَيلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها... ثم تلا هذه الآية»[1].

فتأمّل - رحمك الله - كيف أن الآيات الواردة في القرآن تلفت الأنظار إلى الآيات المشاهدة من أجل إعمال التفكر، وتأمّل أيضاً كيف خُتمت بالدعوة والحث على التفكر.

تفكر - مثلاً - في قوله – تعالى -: {وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الرعد: ٣] وتفكر أيضاً في هذه الآية، وما فيها من تجانس وتماثل وعبرة: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الروم: 21] وتفكر في هذا المشهد البديع، والإعجاز الفريد: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ 68ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل: 68 - 69].

إلى غير ذلك من الآيات العظيمة المشاهَدة في الآفاق، والمعجزات الباهرة المتقنة في هذا الكون الفسيح: فمشهد السماوات والأرض، ومشهد اختلاف الليل والنهار، ومشهد جميع المخلوقات، في تناسقها وإبداعها، لو فتحنا له بصائرنا وقلوبنا، ولو تلقيناه كمشهد جديد تتفتح عليه العيون أول مرة: لاهتزت له مشاعرنا، ولأحسسنا أن وراء ذلك حكيماً يدبر، وعليماً قادراً: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [فصلت: 53].

ومن جميل ما يحكى في هذا الباب ما قاله ابن الجوزي عن نفسه: (عَرَضَ لي في طريق الحجّ خوفٌ من العرب، فسرتا على طريق خَيْبَر، فرأيت من الجبال الهائلة والطُرق العجيبة ما أذهلني، وزادت عَظَمَةُ الخالق - عز وجل - في صدري، فصار يعرض لي عند ذكر الطُرق نوع تعظيم لا أجده عند ذكر غيرها، فصحتُ بالنفس: ويحك! اعْبُري إلى البحر، وانظري إليه وإلى عجائبه بعين الفكر، تشاهدي أهوالاً هي أعظم من هذه، ثم اخرجي إلى الكون والتفتي إليه؛ فإنك ترينَهُ بالإضافة إلى السماوات والأفلاك كذرّة في فلاة، ثم جولي في الأفلاك، وطوفي حولَ العرش، وتلمّحي ما في الجنان والنيران، ثم اخرُجي عن الكُلّ، والتفتي إليه؛ فإنك تشاهدين العالم في قَبْضَةِ القادر الذي لا تقفُ قدرتُهُ عند حدّ، ثم التفتي إليك، فتلمّحي بدايتك ونهايتك، وتفكري فيما قبل البداية، وليس إلاّ العدمُ، وفيما بعد البلى، وليس إلاّ التراب.

فكيفَ يأنسُ بهذا الوجودِ من نَظَرَ بعين فِكْرِهِ المبدأ والمنتهى؟ وكيف يغفَلُ أربابُ القلوب عن ذكر هذا الإله العظيم؟)[2]

---

[1]- صحيح ابن حبان: (620). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: (1468).

[2]- صيد الخاطر: (275، 276).

حكم التفكر والتدبر في آيات الله

يظن الكثير من الناس أن أيًا من التدبُّر في كلام الله -القرآن الكريم- أو التفكُّر في خلق الله المحسوس -الكون الفسيح- هو رفاهية فكرية يستمتع بها محبو الفكر في وقت صفائهم الذهني. إن هذا الظن لهو من أكبر الأخطاء في فهم دين الإسلام. إن التدبُّر والتفكُّر لهما واجبان حتميان على أي مسلم يريد أن يرضي الله تعالى في الدنيا والآخرة. المعارف الأساسية للإيمان الصحيح: الإيمان الصحيح لن يتحقق إلا بمعارف أساسية:

1- معرفة قدر الله وعظمته بالتفكُّر في آيات الله الكونية الدالة على جلاله تعالى. وقد جاء القرآن الكريم والسنة المطهرة بالأمر بالتفكُّر في هذه الآيات الكونية والتحذير كل الحذر من إهمالها.. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في جزء من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها: «لقد نزلت عليَّ الليلة آيات ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}» صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [آل عمران:190-191] صدق الله العظيم.

2- المعرفة والتدبُّر فيما أرسله الله لنا من كتاب كريم -القرآن العظيم- كإرشادٍ لنا في الدار الدنيا حتى نصل إلى الآخرة بسلام.. قال تعالى: {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد:24] صدق الله العظيم. وهاتان المعرفتان الأساسيتان لا يمكن الحصول عليهما إلا بالتفكُّر في كون الله والتدبُّر في كتاب الله. ويُخطئ المرء لو ظن أن التفكُّر والتدبُّر هما حِكرٌ على طبقة معينة من الناس يدعون لأنفسهم أو يشهد الناس لهم بالفكر والمعرفة. لا.. فإن من عظمة كتاب الله أن الإنسان البسيط والعالم الكبير. كلاهما. يستطيعان استخراج لآلئ المعرفة والفكر منه والتدبُّر فيها. لذلك نرى الآية من كتاب الله يفهمها الرجل البسيط فهمًا ويفهمها العالم المتمكن فهمًا آخر وكلا الفهمان قد يكونان صحيحان في الآن ذاته. وأيضًا فإن من عظمة خلق الله أن البدوي البسيط يستطيع إعمال عقله فيه. فيدرك وجود الله وعظمته وجلاله وذلك كما قال الأعرابي الذي سُئِل عن وجود الله فقال: "السير يدل على المسير. والبعرة تدل على البعير. أفأرضٌ ذات فجاج! وبحارٌ ذات أمواج! وسماءٌ ذات أبراج. ألا يدل هذا كله على وجود الحكيم الخبير". والعالم العبقري يجد وجود الله جليًا أمامه. تنضح بدلالاته أسرار الكون وخفاياه. ومثال ذلك ما كشفه العلم الحديث في "المبدأ الإنساني القوي" من أن خصائص الكون خُلِقت ملائمة تمامًا لإعالة الحياة فيه -وليس في الأرض وحدها بل في الكون بأسره- مما يدل على تصميم الله تعالى الفائق الإتقان للكون لهدف رعاية الحياة وحمايتها. خطورة عدم التفكُّر في آيات الله: إن عدم التفكُّر في آيات الله الكونية -ظواهر الكون الدالة على عظمة الله وجلاله- والقرآنية لهو مصيبة كبرى في الآخرة. فانتبهوا انتبهوا يا أولي الألباب. قال تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا . قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى} [طه:124-126] صدق الله

مقياس التفسير والحديث الموضوعي

المحاضرة الثانية

منهج القرآن الكريم في الاستدلال على عقيدة التوحيد والبعث والنبوات

- دراسة موضوعية-

مقدمة:

لا شك أنه قد بذلت جهود حثيثة على مدار التاريخ الإسلامي في الرد على أهل الكتاب وإثبات فساد عقيدتهم والتحريف الذي في كتبهم .كان منها جهود العلامة ابن حزم في كتابه الرائع (الفصل في الملل والنحل) وكتاب العلامة رحمة الله هندي (إظهار الحق) وكتاب العلامة الشيخ أبو زهرة (محاضرات في النصرانية) ثم الجهود المباركة التي أحياها الشيخ أحمد ديدات ومن بعده خليفته الرائع الدكتور ذاكر نايك والذي هو ظاهرة فذة قلما تتكرر في الزمان ومع ذلك فيكاد يكون غير معروف في العالم العربي المسلم.

هذا غيض من فيض من جهود المسلمين الحثيثة في مخاطبة وجدال أهل الكتاب كما أمر الله تعالى:

(وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) (العنكبوت/46)

ولكن في المقابل لا نجد هناك جهوداً مشابهة قد توجهت لخطاب الكفار من الملحدين الذين ينكرون الخلق والبعث والحساب واللأدريين الذين يشكون في الأمر ولا يوجد لديهم.. حسب زعمهم.. دليل يحسم مسألة الإيمان والكفر. ولعل السبب في ذلك أن بعض المسلمين قد ظنوا أن هذا النوع من الكفر كان ممثلاً في كفار قريش ولم يعد له وجود في هذا الزمان.. ولكن الحقيقة أنهم مازالوا موجودين بل بقدر عددهم.. ويا للعجب.. ينحو نصف سكان الأرض.. بعضهم ملحدين (Atheists) وبعضهم شاكين أو لا أدريين (Agnostics) والتقدير المتداول لعددهم في دولة مثل الولايات المتحدة يبلغ نحو 10% من السكان علماً بأن بعض من ينتسبون بحسب ولادتهم إلا عائلات مسيحية أو يهودية هم في الحقيقة من أحد هذين النوعين وهم لا يخجلون من ذكر عقيدتهم إذا سئلوا عنها إعمالاً لحرية الفكر والعقيدة التي نشئوا عليها كما يزعمون. والدارس للشبهات الواهية لكلتا الطائفتين (الملحدين واللأدريين) يجد أن هناك ملاحظات تتعلق بعقيدتهم والجدال معهم نذكرها فيما يأتي:

1- أنه لا فرق بين الشبهات التي أثاروها والشبهات التي كان يثيرها كفار مكة.

2- أنهم ليس لهم كتاب لتوضح لهم فساده ولا يؤمنون بكتابك لتستدل عليهم به. فليس هناك بديل عن محاججتهم بالأدلة العقلية.

3- أن القرآن الكريم قد ذكر عموم حججهم مع الرد العقلي عليها فهو خير معين على جدالهم بالأدلة الدامغة.

1

الاتجاه الخامس: يظهر فيه المنهج كنظام هو جزء من النظام التربوي، وهذا الاتجاه يحدد مفهوم المنهج ومكانته في النظام التربوي بشكل دقيق وشامل.والنظام هنا، (سعادة، 2004: 55) هو: مركب من مجموعة من العناصر التي ترتبط مع بعضها البعض بشكل وظيفي متكامل.وهذه العناصر حددها تايلر بأربعة، هي: الأهداف والمحتوى والتدريس والتقويم.ومما تقدم يمكن تعريف المنهج كنظام بأنه: نسق أو خطة من الخبرات التربوية المتلاحقة التي تسير وفق خطوات متسلسلة، بشكل فردي أو جماعي، وتتسع لتشمل أهداف المنهج، ومحتواه، وإستراتيجيات التدريس وأساليبه ووسائل التعليم والنشاط المدرسي وعملية التقويم.. إلخ.

المنهج العقلي في بيان العقيدة

المنهج العقلي:

إنّ المنهج العقلي الذي يسلكه القرآن الكريم في بيان العقيدة وغرسها في النفوس يأتي متسقاً مع المنهج الفطري ومتكاملاً معه؛ ولذلك فإنّ القرآن الكريم لم يكن مقصوراً على مجرد الخبر عن وجود الله تعالى ووحدانيته وسائر أركان العقيدة، وإنما أقام البراهين العقلية التي بها تُعلَم العلوم الإلهيّة: فكان منهجه ومنهج جميع الأنبياء عليهم السلام الجمع بين الأدلة العقلية والسمعية) الشرعية[1].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فالاستدلال على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحُسْن والاستقامة، وهي طريقة عقلية صحيحة، وهي شرعية، دلّ عليها القرآن وهدى الناس إليها: فإن نفس كون الإنسان حادثاً بعد أن لم يكن، ومخلوقاً من نطفة ثم من علقة... فإن هذا يعلمه الناس كلُّهم بعقولهم، فهو إذنْ عقليٌّ: لأنه بالعقل تُعلَم صحته، وهو شرعيٌّ أيضا[2].

والإسلام ينوّه تنويهاً كبيراً بالعقل ويُعلي من مكانته وقيمته: ونجد شاهداً على ذلك في الآيات القرآنية التي تنزّلت بشأنه: فالعقل هو هبة الله للإنسان، ولذلك جعله الله تعالى سبباً للتكليف ومناطاً للمسؤولية؛ وحثَّ على استعماله فيما خُلق له) أي العقل (وفي المجال الذي يستطيعه، ورسم له المنهج الصحيح للعمل والتفكُّر، وأحال عليه في القضايا الكبرى الرئيسية: كمعرفة الله تعالى ووحدانيته، وصحة النبوة، والبعث بعد الموت: فإنّ إدراك هذه القضايا إدراكاً كلياً عاماً إنما يكون بالعقل، وإن كان هذا لا يعني أن نجعل العقل حاكماً على مقررات الدين: فإن العقل من شأنه أن يتلقى عن الوحي، وأن يفهم ويدرك: فإن للعقول حدّاً تنتهي إليه لا سبيل لها إلى مجاوزته.

مجالات المنهج العقلي في تقرير الألوهية:

والقرآن الكريم يخاطب العقل ويقنع الإنسان بالمنطق السهل المؤثر في النفس بأسلوب حي جذاب: حيث يوجّه نظره إلى آيات الله في الكون والرزق والحياة والموت والأحداث الجارية كما سبق الحديث عنها في المنهج الفطري الوجداني، ولكنه مرة أخرى يعرض لها: وبأسلوب ومنهج عقلي يؤدي في النهاية إلى الغاية ذاتها، وهي إدراك حقيقة الألوهية وما يتفرع عنها من حقائق وقضايا الإيمان والعقيدة:

1- ففي مجال الألوهية:

[1]- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (ج9 /ص226، 227).

[2]- نظر: النبوات، لابن تيمية: (ص48).

يعرض القرآن الكريم آيات القدر والخلق، ومظاهر الموت والحياة، فيقول الله سبحانه :﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾]الواقعة: 57 - 60[1].

وقد تقدّمت هذه الآيات الكريمة في المنهج الفطري: وهي كذلك مثالٌ على المنهج العقليّ: لما فيها من أسلوب منطقيّ يتصف بالحيوية: لما فيها من الأسئلة الموجّهة إلى المخاطَب والإجابة عنها إلى أن يصل إلى النتيجة المطلوبة التي بُدئ بها لإيراد الدليل عليها، مع تعدُّد الأمثلة المأخوذة من حياة الإنسان وما يحيط به.

ولو تأمّل الإنسان بعقله وفكره آياتِ الله المبثوثة في الأرض وفي النفس والآفاق، لأيقن بأن وراء هذه الآيات قدرةَ الله تعالى وأنها دليل على وحدانيته، فتجب طاعته، والالتزام بأمره ونهيه، وخلع ما يُعبَد من دونه من الأنداد والشركاء. قال الله تعالى :﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾]الذاريات: 20، 21[2].

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ عبر للموقنين إذا ساروا فيها من الجبال والبحار والأشجار والثمار وأنواع النبات .

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ ﴾ آيات، إذ كانت نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما إلى أن نفخ فيها الروح. وقال عطاء عن ابن عباس: يريد اختلاف الألسنة والصور والألوان والطبائع. وقال ابن الزبير[3] :يريد سبيل الغائط والبول يأكل ويشرب من مدخل واحد ويخرج من سبيلين .﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾)قال مقاتل) أفلا تبصرون كيف خلقكم فتعرفوا قدرته على البعث[4].

ا وبالأسلوب العقلي المنطقي تأتي أدلة الوحدانية، كقوله تعالى :﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾]الأنبياء: 21، 22 [أي: أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض؟ أي: لا يقدرون على شيء من ذلك. فكيف جعلوها لله ندا وعبدوها معه، ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السموات الأرض، فقال ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ ﴾ أي: في السماء والأرض. ﴿ لَفَسَدَتَا ﴾، كقوله تعالى :﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾]المؤمنون: 91 [وقال هاهنا :﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي: عما يقولون إن له ولدا أو شريكا، سبحانه وتعالى وتقدس وتنزّه عن الذي يفترون وبأفكون علوا كبيرا[5].

والبراهين العقلية في القرآن ذات طريقة حيّة وبأسلوب يمكن أن تفهمه الخاصة والعامة؛ كلٌّ بقدر طاقته.

2- وفي مجال النبوات أيضاً:

يخاطب القرآنُ الكريم العقلَ، ويوجّهه إلى معرفة صدق النبيّ ومصدر القرآن، وأنه هو الوحي المنزّه عن الخطأ والاختلاف، فيقول الله تعالى :﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾

[1]- سورة الواقعة:57-62.

[2]- سورة الذاريات: 20-21.

[3]- عبد الله بن الزُّبَيْر (73 هـ) عبد الله بن الزبير بن العوّام، كنيته أبو بكر وأبو خُبَيْب، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، وكان أول مولود في الإسلام للمهاجرين بالمدينة، وهو أحد العبادلة، وأحد الشجعان من الصحابة، وكان فارس قريش في زمانه وله مواقف مشهودة، شهد اليرموك وهو مراهق وفتح المغرب وغزو القسطنطينية، كان لا ينازع في ثلاثة: شجاعة ولا عبادة ولا بلاغة، بويع بالخلافة عند موت يزيد سنة أربع وستين وحكم على الحجاز واليمن ومصر والعراق وخراسان وبعض الشام، قتل ابن الزبير في جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين رحمه الله .(البداية والنهاية (8/ 332 – 345).

[4]- معالم التنزيل في تفسير القرآن ، تفسير البغوي، المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: 510هـ). المحقق: حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، 1417 هـ - 1997م (ج 7 - ص 375).

[5]- تفسير بن كثير (ج 5 - ص 337).

]النساء: 82 [اعلم أنه تعالى لما حكى عن المنافقين أنواع مكرهم وكيدهم، وكان كل ذلك لأجل أنهم ما كانوا يعتقدون كون الرسول محقا في ادعاء الرسالة صادقا فيه، بل كانوا يعتقدون أنه مفتر متخرص، فلا جرم أمرهم الله تعالى بالنظر والتفكر في الدلائل على صحة نبوته، فقال: أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا فاحتج تعالى بالقرآن على صحة نبوته وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى :التدبير والتدبر عبارة عن النظر في عواقب الأمور وأدبارها، ومنه قوله: إلام تدبروا أعجاز أمور قد ولت صدورها، ويقال في فصيح الكلام: لو استقبلت من أمري ما استدبرت، أي لو عرفت في صدر أمري ما عرفت من عاقبته.

المسألة الثانية :اعلم أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى احتج بالقرآن على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، إذ لو تحمل الآية على ذلك لم يبق لها تعلق بما قبلها البتة، والعلماء قالوا: دلالة القرآن على صدق محمد صلى الله عليه وسلم من ثلاثة أوجه :أحدها :فصاحته .وثانيها :اشتماله على الإخبار عن الغيوب.

والثالث :سلامته عن الاختلاف، وهذا هو المذكور في هذه الآية[1].

فسلامة القرآن من الاختلاف والتناقض، مع سلامته في الأسلوب الذي يجري على منهج واحد، دليلٌ عقليٌّ على أنه من عند الله تعالى: فلو كان من عند غير الله لظهر فيه ذلك التفاوت.

3- وفي السيميات:

يقيم القرآنُ الكريم الدليل العقليَّ على البعث والحساب: فإن العقل يمنع أن تكون الحياة عبثاً: وأن يُترك الإنسان سدىً دون تكليف ولا محاسبة ولا جزاء يفرّق فيه بين المؤمن والكافر، وبين التقي والعاصي الفاجر، فيقول الله تعالى :﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾]القيامة: 36 - 40 [أيظنُّ هذا الإنسان المنكر للبعث أن يُترك هَمَلا لا يُؤمر ولا يُنْهى، ولا يحاسب ولا يعاقب؟ ألم يك هذا الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين يراق ويصب في الأرحام، ثم صار قطعة من دم جامد، فخلقه الله بقدرته وسوَّى صورته في أحسن تقويم؟ فجعل من هذا الإنسان الصنفين: الذكر والأنثى، أليس ذلك الإله الخالق لهذه الأشياء بقادر على إعادة الخلق بعد فنائهم؟ بلى إنه - سبحانه وتعالى- لقادر على ذلك[2].

والذي ينبغي أن نُلمح إليه في آخر كلامنا عن المنهج العقلي: أن الإسلام بيّن للعقل الطريق الذي ينبغي أن يسير فيه حين يريد النظر في مسألة بعينها؛ والطرائق مختلفة والأساليب متعددة؛ ولكل مسألة من المسائل ما يناسبها من طرائق النظر وأساليب الفكر.

فإذا كان موضوع النظر هو مسائل الألوهية، فإن العقل أمامه طريقان:

أحدهما :أن ينظر في الكون ويتأمّله ليستنتج من ذلك أن له موجداً، ثم ينظر في تناسق هذا الكون وانسجامه ليعلم أن موجده واحد عالم حكيم خبير.

والطريق الثاني :أن ينصت إلى هذا الإله الذي آمن به حينما يتحدث عما يجب وعما يجوز وما يستحيل على هذا الإله من أسماء وصفات.

أما حين يكون الحديث في مجال النبوة - مثلاً - فإن الإسلام يوجّه العقل وجْهةً أخرى، فيطالبه بالنظر في إثبات دعوى النبوة من جهات ثلاث:

[1]- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1420 هـ، (ج 10 - ص 151).

[2]- التفسير الميسر (ج1 - ص 578).

لأولى :النظر في تاريخ مدعي النبوة.

لثانية :فيما جاء به هذا النبي صلى الله عليه وسلم من العقائد والشرائع.

لثالثة :أن ينظر فيما ادّعاه من الخوارق والمعجزات[1].

أخيراً: فإن هناك توازناً واتساقاً بين هذا المنهج العقلي والمنهج الفطري السابق: وهذا أيضاً يمكن أن يكون منهجاً آخر: فنقول: إن القرآن يسلك منهجاً عقلياً ووجدانياً في الوقت نفسه لبيان حقائق العقيدة والإيمان.

بعد هذه اللمحات السريعة، يحسُن أن نختم هذه المقالة بكلمات عن مميزات المنهج القرآني في عرض العقيدة الإسلامية:

ن هذا المنهج يتميز:

ولاً :بكونه يعرض) الحقيقة (كما هي في عالم الواقع، بالأسلوب الذي يكشف كل زواياها وكل جوانبها وكل رتباطاتها، وكل مقتضياتها،وهو مع هذا الشمول لا يعقِّد هذه الحقيقة ولا يلفُّها بالضباب، بل يخاطب بها الكينونة البش-رية في كل مستوياتها.

وثانياً :بكونه مبرأ من الانقطاع والتمزق الملحوظَين في الدراسات العلمية والتأملات الفلسفية: فهو لا يُفرد كل جانب من جوانب الكل الجميل المتناسق بحديث مستقل كما تصنع أساليب الأداء البش-رية: وإنما هو يعرض هذه الجوانب في سياق موصول، يستحيل مجاراته أو تقليده.

وثالثاً :بكونه مع تماسك جوانب الحقيقة وتناسقها، يحافظ تماماً على إعطاء كلّ جانب من جوانبها مساحتَه، التي تساوي وزنه الحقيقي في ميزان الله: وهو الميزان، كما أنَّ هذه الحقائق لا يطغى بعضها على بعض في التصور الإسلامي.

ورابعاً: بتلك الحيوية الدافقة الموحية، مع الدقة والتقرير والتحديد الحاسم: وهي تمنح هذه الحقائق حيوية وإيقاعاً وروعة وجمالاً لا يتسامى إليها المنهج البشري في العرض ولا الأسلوب البشري في التعبير. ثم هي في الوقت ذاته تُعرَض في دقة عجيبة، وتحديد حاسم: ومع ذلك لا تجور الدقة على الحيوية والجمال، ولا يجور التحديد على الإيقاع والروعة[2].

2- إن القرآن الكريم ومعه السُّنة النبوية هو مصدر هذه العقيدة الذي يتفق مع الفطرة والعقل: وفيه الغَنَاء والكفاية، وهو الهداية والنور، وهو في الوقت ذاته سبب الهداية إلى أقوم طريق في العقيدة والعبادة والأخلاق والتشريع، ولا يجوز أن نحمله على الآراء والمقررات البشرية القابلة للصواب والخطأ، بل ينبغي أن يكون هو المهيمن عليها المصحح لأخطائها والمقوّم لمنهجها، ويكون فهمه وتفسيره قائماً على مناهج فهم النصوص في اللغة التي نزل بها مع البيان المعصوم من النبي صلى الله عليه وسلم.

3- ويحسُن في هذا المقام التأكيد على: وجوب دراسة مباحث العقيدة والإيمان وما يتصل بها دراسة موضوعية من القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، بطريقة تتناسب مع المخاطَبين في هذا العصر من حيث طريقتُهم في التفكير وأسلوبهم في التعبير، مع المحافظة على المفاهيم الإسلامية، دون انتقاص أو تحريف.

ولذلك ينبغي أن نشير أيضاً إلى القضايا الفكرية والعقدية التي تطفو على الساحة اليوم، ومن ثَمَّ دراستها بأسلوب يتفق مع روح العصر، ويستفيد من مقررات العلوم القطعية ونتائجها، دون مجافاة لروح النصوص الشرعية الصريحة الصحيحة: إذ إن صحيح المنقول يتفق مع صريح المعقول.

---

[1]- انظر: عقيدتنا وصِلَتُها بالكون، د. طه الدسوقي: (ص110 – 113).

[2]- انظر: تفصيل ذلك في كتاب: مقومات التصور الإسلامي: سيد قطب (ص65 / 68).

ولعل هذا المقام يتسع لتوصية أخرى تتصل بالاهتمام بالتراث الإسلامي الذي خلّفه لنا علماء السلف - رحمهم الله تعالى - في باب العقيدة والإيمان، مما كتبوه تحت عنوان) :الفقه الأكبر (أو) الشريعة (أو) العقيدة (أو التوحيد (قبل أن يتأثر هذا العلم بالمؤثرات الأجنبية التي أثّرت في) علم الكلام).

ولا شك أن العقيدة السليمة هي أساس الدين. و أن اعتماد القرآن الكريم للأدلة العقلية في محاججتهم وعدم اكتفائه بتقرير الحق والإعراض عما هم عليه من الباطل لهو منهج جدير بالدراسة واستخلاص العبر والدروس. ونورد هنا الأدلة العقلية التي ساقها القرآن الكريم للرد على ثلاثة مسائل هي في الحقيقة جوهر العقيدة ألا وهي مسائل الخلق والوحدانية والبعث. ونورد فيه المباحث الاتية:

أولاً: أدلة الخلق

ينكر الملحدين أن هناك خالقاً قد خلقهم. ويتوقف اللاأدريين في المسألة ويدعون أن الأمر محتمل ولكن لايوجد دليل يحسم المسألة. والله تعالى يرد على هؤلاء وأولئك بقوله تعالى في أية جامعة معجزة:

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ. أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ) (الطور/35-36)

ثلاث حجج عقلية يواجه بها القرآن الكريم كلتا الطائفتين فيخيرهم بينها جميعا :

1- هل خُلقتم من لا شيء. وهل يمكن إعطاء مثال على شيء في الوجود وجد من لا شيء. إن هذا أصلاً بخلاف قوانين الكون التي نحيا عليه.

2- هل أنتم خالقون لأنفسكم.

3- هل أنتم الذين خلقتم السموات والأرض.

إن العقل السليم لا يستطيع بحال أن يجيب بإجابة تخالف النفي (لا) على الأسئلة الثلاثة. فإن لم تكن خُلقت من لا شيء. ولا أنت الذي خلقت نفسك. ولا أنت الذي خلق السموات والأرض. فإن هناك *خالقاً لهذا الكون*. أظهر لنا في جميل صنعته كمال قدرته. وخلق الكون على بناءٍ واحد ليقر بوحدانيته. وأرسل الرسل وأنزل الكتب لنعرفه بأسمائه وصفاته. وتودد إلينا وهو الغني عنا. وأخبرنا بفرحه بنا إن عصينا فتبنا فأنبنا. فهل نرغب عن هذا الرب الخالق البارئ المصور ونحيا في أوهام الخيالات لنصحو على الحسرة والندم.

ثانياً: أدلة وحدانية الله تعالى

إن الخالق الكريم الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد قد رد في كتابه العظيم رداً حاسماً ينير العقول ويأخذ بالألباب على من ادعى أن هناك آلهة غير الله تعالى لها في الكون نصيب وفي تدبيره منزلة. وذلك من وجهين:

الأول: أن من يدعي ذلك عليه أن يأتي بالدليل. وهيهات قال تعالى:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا) (فاطر/40)

فهي دعوى بلا برهان. وطلب البرهان من المخالف هي قاعدة قرآنية مضطردة يجب إتباعها مع أصحاب الدعاوى.

والثاني: هو دعوة أصحاب العقول السليمة إلى تصور نتيجة هذا الزعم الفاسد:

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)(الأنبياء/22)

ولك أن تقلب الأمر على كل وجه في هذا الكون لترى ببصيرتك صور هذا الفساد لو ادعينا جدلاً حدوث هذا الفرض المستحيل.

والجميل، أنه كلما تقدم الإنسان في العلم، ظهرت دلائل جديدة للوحدانية، وكأن لهذه الصفة الجليلة طابعاً يطبع كل ذرات الكون وكل خلايا المخلوقات الحية بخاتم التوحيد. ألسنا نرى الوحدانية في قوانين علوم الحياة سواء في قوانين الخلية أو قوانين المادة الوراثية كذلك في قوانين الفيزياء من الذرة إلى المجرة.

ففي قوانين علم الحياة: بنيت جميع الكائنات الحية على قاعدة الخلية وبنيت جميع المادة الوراثية من أربعة أحرف حتى بات العلماء ينقلون الجينات من نبات إلى آخر أو حتى من نبات إلى حيوان؟ وما ذلك إلا لأن الخالق واحد.

وفي قوانين الفيزياء: كل ذرات الكون قد بنيت على نسق واحد. من أبسط الذرات التي يدور فيها إليكترون واحد حول بروتون واحد إلى أثقل الذرات المعروفة وكل قوانين الفيزياء ثابتة على امتداد الكون حتى بات من الممكن حساب كل مسألة في الكون بنفس القوانين.

وبزداد الأمر وضوحاً حين يضرب الله تعالى المثل (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (الزمر/29)

ماذا لو كان إله الشمس غير إله الأرض. وحاشا لله. فأقام لها قوانين لا نفهمها أو بدل اليوم لها قانون غير قانون الأمس. ألم تكن الحياة على الأرض لتضطرب ثم تنعدم. وهل يترك خالق الأرض خالق الشمس يعبث بأهل الأرض أم يتقاتل الجبابرة فيهلك الخلق مثل خرافات وأساطير آلهة اليونان في القديم. وكيف كان لخالق الأرض أن يقول في كتابه لأهل الأرض (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) (الرحمن/5) إن لم يكن له الخلق والأمر وليس معه في الكون شريك ولا نصير. ولذلك فقد نفى الله تعالى كل شبهه في هذه الآية المعجزة:

رب الأرض يطالب بعبادتك له بحق أنه خلقك ورزقك وسخر لك ما في الأرض جميعاً. ورب الشمس يطلب منك عبادته أكثر من رب الأرض لأنه لو حرمك ضوء الشمس لهلكت. أرأيت نعمة التوحيد ونعمة أن الله واحد لا شريك له في خلقه ولا في ملكه (الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)(العنكبوت/63)

إن الأمر في ذاته مع أنه دليل على الوحدانية فإنه نعمة تستحق الشكر. لأن الله تعالى ليس له ولد ولا شريك ولا ولي من الذل. وأنظر إلى هذا القيد المهر (من الذل) ليخرج منه أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين يحبهم ويحبونه. أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين. أليس هذا الإله بمستحق للتفرد بالعبادة والتودد بالحب.

(وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا) (الإسراء/111)

وقد تكررت آيات القرآن الكريم التي تقرر الوحدانية في النفوس وتنزع أدنى شبهة قد تطرأ على ذهن أحد من البشر بدلالة تفرد الله تعالى بالخلق والأمر وعدم إدعاء أحد أنه خلق في هذا الكون شيئاً.

فقد رد الله تعالى على كل من ادعى وجود الشريك بما لا يستطيعون له جواباً ويستحقون على فعله عقاباً. قال تعالى:

فنعتهم بالظلم ووصف حالهم بأنهم ليس لهم برهان ولا دليل على ما يفترون.

(قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) (الرعد/16)

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (الأحقاف/4)

(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى) (النجم/23)

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) (المؤمنون/117)

ثالثا: أدلة البعث في القرآن الكريم

لا شك أن التكذيب بالبعث كان من أكثر الشبهات لدى الكافرين ومن أشد العقبات التي واجهها الرسول صلى الله عليه وسلم في بداية الدعوة الإسلامية.. وكان للكفار مواقف متباينة من هذا الأمر العظيم حالت بينهم وبين الإسلام. ولهذا فقد أطال القرآن الكريم في الرد عليهم وإثبات حتمية القيامة. وقد تنوعت أساليب القرآن الكريم لإقامة الحجة على المخالفين.. فإذا استحضرنا ما سبق ذكره من أن أكثر من نصف سكان الأرض الآن لا يؤمنون ببعث ولا حساب. علمنا مدى أهمية دراسة منهج القرآن الكريم في إثبات حتمية البعث ومحاولة تدبر هذه الآيات الكريمة لنقيم عليهم الحجة. ولعل الله تعالى أن يهدي بنا رجلاً واحداً فنفوز في الدنيا والآخرة. ولأن القرآن الكريم قد أطال في بيان هذه المسألة. فسنتناولها بشيء من التفصيل. وسنبدأ بإذن الله ببيان موقف

الكفار من قضية البعث وأسبابه ثم نوضح الدلائل التي ساقها القرآن الكريم لحسم هذه القضية من الناحية العقلية.

أولاً: مواقف الكافرين من البعث منذ زمن التنزيل:

موقف الكافرين من البعث كان دائما هو الإنكار والتعجب والتكذيب.

(ق والْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) (ق / 1- 3).

ثانياً: أسباب موقف الكافرين

أسباب ذلك الموقف فقد عددها القرآن الكريم.

1- الشهوة وحب التنعم بملذات الدنيا بلا رقيب ولا حسيب:

(وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) (الأنعام/29)

(إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) (المؤمنون/ 37)

(وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ).(الجاثية/24)

كانت الشهوة وحب التنعم بملذات الدنيا بلا رقيب ولا حسيب هي قائدهم في هذا الاعتقاد الفاسد... فالقيامة معناها الحساب على أعمال الدنيا والتقيد بالقوانين التي سيضعها من سيحاسبك. وهم قطعا لا يحبون من ذلك شيء. ولذلك فالله تعالى الذي خلق الإنسان وركب فيه الشهوة لم يحرمه منها بإطلاق وإنما هداه لما يصلح هذه الشهوة لما ينفعه في الدنيا والآخرة وربط ذلك بعبادة الله تعالى قال سبحانه:

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (الأعراف/32) **فنبه الله تعالى الكافرين أن إيمانهم لا يحرمهم من التمتع بالدنيا بل هو الذي سيضع لهم القوانين التي تجعلهم يتمتعون بها من غير ضرر في الدنيا ثم في الآخرة نعيم مقيم وجنات تجري من تحتها الأنهار وما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.**

2- الشك:

(وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ) (الجاثية/ 32).

إن أمور العقيدة لا تبنى إلا على يقين.. وادعاؤهم (الشك) في أمر يقيني لم يكن ليغني عنهم شيئاً.

ويرد الله تعالى عليهم بدعوة للتأمل في ملكوت السموات والأرض ليحدث اليقين بطلاقة قدرة الله تعالى في الخلق والبعث. قال تعالى (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) (إبراهيم/10)

3- الإعراض عن دلائل قدرة الله المطلقة في الكون وأنه على كل شيء قدير:

(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) (يس/78)

أي من يستطيع ذلك. إعراضاً منهم عن دلائل قدرة الله تعالى. وقياسهم قوة الله على قوتهم بجهلهم وعدم إذعانهم لحقائق الكون. وقد عرض الله تعالى في الآية سبب هذا الزعم الفاسد وهو عدم التفاتهم إلى عظيم صنعة الله في خلقه لهم (وَنَسِيَ خَلْقَهُ) وهذا النسيان إنما هو إعراضاً منهم عن تلك القدرة في الخلق التي تدحض شبههم في قدرة الله تعالى على إعادتهم وبعثهم بعد الموت.

وقد عرض القرآن الكريم شبهة جهلهم بقدرة الله في موضع آخر لافتاً نظرهم إلى قدرة الله الظاهرة في الكون والتي تدل على طلاقة قدرته القاهرة والقادرة على بعثهم بعد الموت. قال تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) (سبأ / 7- 9).

إن هذا الخلق العظيم يحمل دلالة طلاقة قدرة الله تعالى الذي لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

بل هون الله عليهم الأمر فقال تعالى: (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (غافر/ 57) فكيف نشاهد الآيات العظيمة في هذا الكون المشاهد. والذي تتجلى لنا في كل يوم في زمن العلم المزيد من دلائل عظمة خلقه. ثم نشك في آية أقل منها وهي الخلق أو البعث.

4- التقليد الأعمى للأمم الكافرة التي سبقتهم:

قال تعالى: (بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) (المؤمنون: آية 81- 83).

إنه التقليد المذموم من كل وجه. والذي قام على غير دليل ولا برهان ولا كتاب مبين.

5- الجدال باستحالة جمع أجزاء الانسان بعد تحللها وتشتتها في باطن الأرض:

يدعي المجادلون أن الأجسام بعد موتها تتحلل إلى مكوناتها الأساسية التي قد تغيب في باطن الأرض أو تدخل في تركيب نبات يعود ليأكله حيوان.. إلى آخر تلك السلسلة الجدلية التي قد يفترضها المعاندون المكذبون فيستحيل جمع ذلك المتناثر من عهد آدم إلى قيام الساعة في زعمهم

(وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (الرعد/ 5)

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) (سبا/ 7)

(وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ) (السجدة/10)

أي إذا تحللت أجسامنا وتاهت دقائقها في غيابات الأرض. فيكف تجمع لنبعث من جديد؟

والله تعالى يرد عليهم بدليل علمه المحيط سبحانه فيقول تعالى:

(قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ) (ق/4)

والحقيقة أن هذه الآية هي من فيض كرم الله تعالى علينا في كتابه الكريم. حيث يأخذنا في رحلة في ملكوت السموات والأرض نستصحب فيها طلاقة قدرة الله المعجزة التي تحفظ على الإنسان بعد موته مواضع غيابات دقائق جسمه مهما طال العهد ومهما تعقد الأمر. ومن رحمة الله بنا أنه لم يفصل لنا أكثر من ذلك لأن عقل الإنسان قد يقضي الساعات الطوال وهو يتأمل هذه الآية الكريمة التي لا تنقضي عجائبها. فكيف لو زاد التفصيل بما لا تحتمله عقولنا؟

ثالثاً: أدلة القرآن الكريم على البعث:

1- دليل عدم عبثية الخلق:

قال تعالى: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) (المؤمنون / 115).

هذا دليل عقلي.. إن هذا الخلق العظيم لا يمكن أن يكون عبث .. فكيف تكون نهايته إلى تراب.. فيتساوى الصالح والطالح.. القتيل والقاتل.. الظالم والمظلوم.. فيكون الأمر عبث.. بل ويكون مدعاة للفساد في الأرض.. إن عدم العبثية في الخلق تستوجب أن تكون هناك قيامة يحاسب فيها الناس على أعمالهم. أنظر إلى أي جهاز من أجهزة الجسم لتجده ليس بعبث. انظر إلى المخ البشري كيف خلق الله فيه مائة وعشرين مليار خلية عصبية ترتبط كل خلية في المتوسط بنحو عشرة آلاف خلية أخرى في ترابط معجز ليتم الشعور بالإبصار والسمع والشم واللمس وكذلك لتكون هناك قدرة على الكلام والحركة والتفكير والإدراك وتخزين ملايين الكلمات والصور والأسماء والأماكن والروائح والقدرة على تذكرها فور رؤيتها ولو بعد سنين. ومن الناس من يُسَخِّر ذلك العطاء المبهر في الطاعة ومنهم من يسخره في المعاصي.. منهم الأنبياء والصديقين والشهداء وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي..

ومنهم هتلر وقارون وهامان.. ثم بعد ذلك يموت الإنسان . وينتهي الأمر. فيتساوي الأخيار والفجار!؟ أليس هذا عبث؟ لقد شنع الله تعالى على من هذا ظنه

قال تعالى: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) (الجاثية آية 31)

وقال تعالى: (وما يَستَوي الأَعمَى والبَصيرُ والَّذينَ آمَنوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ وَلا المُسيءُ قَليلاً ما تَتَذَكَّرونَ) (غافر آية 58)

وقال تعالى: (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ) (السجدة آية 18).

وقال تعالى: (أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً)(القيامة / 36).

أي يترك هملاً وهو الذي خلقه الله تعالى بعنايته منذ كان نطفة فعلقة ثم سواه الله تعالى فجعل منه الذكر والأنثى. فإذا كان منذ بداية حياته في عناية الله ورعايته. فكيف يهمل في آخرها؟

وعقب الله تعالى على هذه الآيه الكريمة (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ) (المؤمنون / 115).

بهذا التعقيب الرائع في قوله سبحانه (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) (المؤمنون / 116).

لقد نزه الله تعالى نفسه في أول الآية بقوله سبحانه (فتعالى) فباعد بينه وبين ما يدعون بالباطل. ثم دعانا لاستحضار اسمين من أسمائه الحسنى (الملك الحق) فالملك هو الذي يضع القوانين لا أنتم والحق منزه عن باطلكم وعما تصفون.

2- دليل الخلق الأول:

قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (الروم/27)

إن الذي يخلق شيئاً أول مرة يقدر على إعادته.. بل هو على إعادته أقدر. وكلّ عليه هين سبحانه..

وقال تعالى في الرد على المكذب المعاند:

(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) (يس/78)

أي لم يعتبر بخلق الله تعالى له على قدرته على إعادته بعد موته

وقال تعالى في سورة الحج في رد واضح صريح على من ينكر البعث:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ). (الحج / 5- 7).

لقد استحضر القرآن الكريم سؤال من يشك في البعث (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ) وجعل الإجابة هو الواقع الذي لا يملك أحد إنكاره من مراحل الخلق المعجز في الأرحام (فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)وتبعها بمراحل حياة الإنسان في هذه الأرض (ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً)وبختم الآية بهذا التقرير الحاسم (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ). فلا حجة لمعاند أن يتبرأ من دليل يحمله في نفسه من يوم خُلق إلى يوم يموت يشهد لله بأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير.

ويعاود القرآن الكريم التذكير بهذه الحقيقة الدامغة مرة بعد مرة فيقول تعالى:

(وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا) (مريم/66-67)

فلماذا ينسى الإنسان خلقه هو مع علمه أنه خلق من شيء لا يذكر.

وقال تعالى: (وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً . أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً) (الإسراء/ 49-51).

إن الإنسان قد يغفل عن شيء غائب عنه. ولكن كيف يغفل عن دليل يحمله بين جنبيه طوال حياته.

3- دليل قدرة الله تعالى في خلق الإنسان:

قال تعالى: (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ) (القيامة/3-4)

إن الناظر في عجيب صنعة الله في كل جزء من أجزاء الجسم البشري. لا بد وأن يقر لله تعالى بكمال القدرة وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير.

4- دليل إخراج الحي من الميت والميت من الحي:

قال تعالى: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ) (الروم/ 19)

في الآية دليلان. نتعامل أولاً مع الأول منهما وهو إخراج الحي من الميت والميت من الحي: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ). كإخراج الجنين الحي من داخل القشرة الصماء الميتة لبيض الكثير من الكائنات. وإخراج الأشجار والأزهار من حبة صماء لا يبدو عليها أثر الحياة. فهذه الأمور العجيبة تظهر طلاقة القدرة الإلهية وهي دليل عقلي للمتأمل على البعث بعد الموت ولذلك قال تعالى في نهاية الآية الكريمة (وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ)

5- دليل إحياء الأرض الميتة بعد موتها:

قال تعالى: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ) (الروم/ 19)

قد يعتبر البعض أن الآية تحمل دليلاً واحداً ولكنهما تحمل دليلان إذ الواو في قوله تعالى (وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) للمغايرة بين ما قبلها وما بعدها. وهذه الآية المبهرة. وهي إحياء الأرض بعد موتها. ساقها القران الكريم مرة بعد مرة للدليل على البعث بعد الموت. فكما كان التعقيب في نهاية هذه الآية بقوله تعالى (وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ) فقد عرض الله تعالى هذا الدليل في قوله تعالى في سورة الحج:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ). (الحج / 5- 7).

6- دليل خلق السموات والأرض:

قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً) (الإسراء / 97- 99).

وقال تعالى: (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) (غافر/57)

وقال تعالى: (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ. إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (يس/81-83)

لما أخبرنا الله تعالى أن خلق السموات والأرض أكبر من خلقنا. فلا عجب أن يقدر على أن يخلق مثلهم أو يعيد خلقنا أو أن يفعل في ملكه ما يشاء.

7- دليل التاريخ في قصص القرآن الكريم عمن أماتهم الله ثم أحياهم في هذه الدنيا:

وهي خمس قصص كلها في سورة البقرة:

1- عقاب الله تعالى لبني إسرائيل على طلبهم رؤية ذاته تعالى بالموت ثم بعثهم بعد ذلك :

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الثالثة

الجدل في القرآن الكريم

نوح-ابراهيم-موسى

تعريف الجدل في اللغة والاصطلاح:

لغة: في الأصل اللغوي لمادة (جدل) استحكام الشيء في استرسال يكون فيه، وامتداد الخصومة، ومراجعة الكلام. و(الجدال) المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جدلت الحبل، أي: أحكمت فتله، وجدلت البناء: أحكمته، ودرع مجدولة: المحكمة العمل. ويقال: جدل الحَبُ في سنبله: قوي. والأجدل: الصقر المحكم البنية. والمجدل: القصر المحكم البناء، ومنه: الجدال، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه. وقيل: الأصل في الجدال: الصراع وإسقاط الخصم صاحبه على الجدالة، وهي الأرض الصلبة.

وقد ورد لفظ الجدل واشتقاقاته في القرآن الكريم تسعا وعشرين مرة:

منها الفعل (جادل) بأزمنته الثلاثة، والمصدر (الجدال)، و(الجدل)، ويبدو من توزيع ورود هذه المشتقات على السور القرآنية، أن مفهوم الجدال مفهوم مكي أكثر منه مدني، إذ ورد في السور المكية عشرين مرة، وفي السور المدنية تسع مرات.

وفي الاصطلاح : والجدل ضربٌ من الخصومة والمغالبة بالحُجّة، يثور بين المتجادلين في قضيّة مختلف فيها، فيحاول كلٌّ أن تكونَ له الغلبةُ فيه والانتصار بما يُدْلي به من حُجج، ويصطنع فيه من وسائل الإقناع: مثلهما كمثل المصطرعين، لا يزال كلاهما بصاحبه يعالج مقاومته حتى ينتصر عليه، ويلقي به على الأرض واهنًا مخذولاً. لهذا كان الجدل مدعاة إثارة، ومظنة هياج، يدفع إلى المخاشنة والسخرية، ويغري بالاجتراء على الحقيقة واستباحة طمسها بالحيلة والافتراء، وربما دفع إلى القتال والانتقام، وهيهات مع هذه الملابسات أن يبلغ الجدل منتهاه، ويؤتي ثمرته المرجاة إلا مع الحلم، وإحسان الظن، ورياضة النفس على الصبر والاحتمال.

ومادة (جدل) وما اشتق منها وردت في القرآن على ثلاثة معان[1]، هي:

الأول: بمعنى الخصومة، وهذا المعنى أكثر ما جاء عليه هذا اللفظ، من ذلك قوله تعالى} :ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا) {غافر:4}، أي: ما يخاصم في حجج الله وأدلته على وحدانيته بالإنكار لها، إلا الذين جحدوا توحيده، ونحوه قوله سبحانه} :قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا) {هود:32}، أي: قد خاصمتنا فأكثرت خصومتنا، ومنه أيضاً عز وجل} :ومن الناس من يجادل في الله بغير علم) {الحج:3}، أي: يخاصم في الله، أما قوله تعالى} :فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط) {هود:74}، عن مجاهد} :يجادلنا{، يخاصمنا، وتفسير (الجدال) هنا بمعنى السؤال والطلب من الله -كما ذهب إلى ذلك بعضهم- غير مستقيم، واعتبر الطبري هذا التفسير جهلاً بالكلام، قال: لأن الله تعالى أخبرنا في كتابه أنه يجادل في قوم لوط، فقول القائل" :إبراهيم لا يجادل"، موهماً بذلك أن قول من قال في تأويل قوله} :يجادلنا{، يخاصمنا، أن" إبراهيم كان

[1]- مفردات ألفاظ القرآن - 1 / 175.

يخاصم ربه. جهل من الكلام. وإنما كان جداله الرسل على وجه المحاجة لهم. ومعنى ذلك: وجاءته البشرى يجادل رسلنا. ولكنه لما عُرف المراد من الكلام حذف "الرسل."

الثاني: بمعنى المراء. من ذلك قوله عز وجل} :ولا جدال في الحج) (البقرة:197). يعني: لا مراء في الحج. روي عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال: (الجدال) أن تماري صاحبك حتى تغضبه. وعن مجاهد} :ولا جدال في الحج (قال: المراء. ونحو هذا قوله تعالى} :ما ضربوه لك إلا جدلا) (الزخرف:58). أي: مراء. قاله ابن كثير .ومثله أيضاً قوله عز وجل} :وكان الإنسان أكثر شيء جدلا) (الكهف:54). قال الطبري :وكان الإنسان أكثر شيء مراء وخصومة. لا يُنيب لحق. ولا ينزجر لموعظة.

الثالث: بمعنى الحِجَاج والمناظرة. من ذلك قوله سبحانه} :وجادلهم بالتي هي أحسن) (النحل:). قال ابن كثير :أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال. فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحُسْنِ خطاب. وقد يكون المراد بـ (الجدل) في هذه الآية الدعوة إلى الدين. قال القرطبي :أمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنة وتعنيف[1]. ومما جاء بلفظ الحِجَاج والمناظرة قوله عز وجل} :ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ( )العنكبوت:46.(

وقد ذكر بعض أهل العلم فرقاً بين لفظ (الجدال) ولفظ (الحِجَاج). فقال: "المطلوب بـ (الحِجَاج) هو ظهور الحُجة. والمطلوب بـ (الجدال) الرجوع عن المذهب. وذلك أن دأب الأنبياء عليهم السلام كان ردع القوم عن المذاهب الباطلة. وإدخالهم في دين الله ببذل القوة والاجتهاد في إيراد الأدلة والحِجج." نخلص مما تقدم أن لفظ (الجدال) أكثر ما جاء في القرآن الكريم بمعنى (الخصومة). وجاء أيضاً بمعنى (المراء). وبمعنى (المناظرة) و(الحِجَاج). وهو بحسب هذا المعنى الأخير محمود ومرغوب فيه. وهو بحسب المعنيين الأول والثاني مذموم ومرغوب عنه.

حكم الجدال:

الجدال تنتظم فيه الأحكام التكليفية الخمسة. فمنه ما هو واجب يأثم العبد بتركه. ومنه ما هو مستحب. ومنه ما هو مباح. ومنه ما هو مكروه. ومنه ما هو حرام. والمقصود من الكلام هنا الكلام عن الجدال الحرام والمكروه.

قَالَ الْكَرْمَانِيُّ: الْجِدَال هُوَ الْخِصَام وَمِنْهُ قَبِيح وَحَسَن وَأَحْسَن. فَمَا كَانَ لِلْفَرَائِضِ فَهُوَ أَحْسَن. وَمَا كَانَ لِلْمُسْتَحَبَّات فَهُوَ حَسَن. وَمَا كَانَ لِغَيْرِ ذَلِكَ فَهُوَ قَبِيح[2].

وقال المهلب: الجدال موضوعه في اللغة المدافعة. فمنه مكروه. ومنه حسن. فما كان منه تثبيتًا للحقائق وتثبيتًا للسنن والفرائض. فهو الحسن وما كان منه على معنى الاعتذار والمدافعات للحقائق فهو المذموم[3].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: في قول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه وفاطمة رضي الله عنهما "أَلَا تُصَلُّونَ" قَالَ: وَيُؤْخَذ مِنْهُ الْإِشَارَة إِلَى مَرَاتِب الْجِدَال فَإِذَا كَانَ فِيمَا لَا بُدّ لَهُ مِنْهُ تَعَيَّنَ نَصْر الْحَقّ بِالْحَقِّ. فَإِنْ

---

[1]- تفسير القرطبي - رضي الله عنه 2 / 409(.

[2]- فتح الباري لابن حجر - 20 / 406.

[3]- شرح صحيح البخاري لابن بطال - 10 / 377.

جَاوَزَ الَّذِي يُنْكِر عَلَيْهِ الْمَأْمُور نُسِبَ إِلَى التَّقْصِير. وَإِنْ كَانَ فِي مُبَاح اِكْتُفِيَ فِيهِ بِمُجَرَّدِ الْأَمْرِ وَالْإِشَارَة إِلَى تَرْك الْأَوْلَى[1].

أنواع الجدال:

الجدال نوعان: الأول: جدال ممدوح: وهو الجدال لتثبيت الحق ودحض الشبهات:

من أنواع الجدال الجائز الجدال لتثبيت الحق ودحض الشبهات ومنه جدال النبي صلى الله عليه وسلم لقومه لبيان سبيل الحق وكشف ما عندهم من الشبهات.

قال الله تعالى :﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[2].

وهذا النوع من الجدال أحياناً يكون واجباً، وأحيانا يكون مستحبا. فيكون واجبا إذا أثيرت الشبهات في وجه الإسلام. وقام بعض الناس بتزييف الحقائق لطمس معالم الإسلام، أو لتشويه صورته. فأقول: هنا تجب المجادلة لتبيين حقائق الإسلام، وكشف زيف خصومه. ومع ذلك فإن المجادلة والحال هكذا يجب أن تكون بالتي هي أحسن كما أمر ربنا تبارك وتعالى. فليس فيها شيء من السب والشتم. بل ليس فيها إلا إظهار الحق وتبيينه للناس.

وقد يكون الجدال مستحباً لدعوة غير المسلمين للإسلام. وذلك ببيان ما هم عليه من سوء الديانة وفساد المعتقد، وتحريف ما بين أيديهم من الكتاب إذا كانوا أهل كتاب. مع بيان دين الله تعالى وذلك أيضاً لا يكون إلا بالتي هي أحسن كما أمر ربنا تبارك وتعالى.

قال الله تعالى :﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ ﴾[3]

الثاني: الجدال المذموم:

وينقسم إلى أقسام كثيرة فمنها ما هو كفر بالله تعالى. ومنها ما يوجب النار عياذاً بالله تعالى. ومنها ما هو علامة على الضلال. ومنها ما يورث العداوة ويقطع المودة. ومنها ما يولد الكبر في قلب صاحبه.

الجدال الذي يشكل جزءا من الطبيعة الإنسانية. وقد تمثلت هذه الطبيعة في صور مختلفة، يتصدرها القانون الإلهي الذي عبرت عنه آية الكهف بدقة وبيان: "وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ

---

[1]- فتح الباري لابن حجر - 20 / 406.

[2]- سورة النحل: الآية /125.

[3]- سورة العنكبوت: الآية /46.

أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً" [سورة الكهف، الآية: 54]. كما دلت آية النحل على استمرارية هذا الجدال إلى اليوم الآخر: "يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ" [سورة النحل، الآية: 111." وقد صنف الكثير من المفسرين والدارسين هذا النوع من الجدال ضمن الجدال المذموم، لكننا لا نستطيع مجاراة هذا الحكم؛ لأن الوصف متى كان جزءا من الطبيعة التي جبل عليها الإنسان، صعب الحكم عليه بالذم، بل قد يكون من الأحكم وصفه بالإيجابي، ولعل من أجلى صور الإيجابية في هذا النوع من الجدال تلك التي تسند فعل الجدال إلى أنبياء الله عليهم السلام، "قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ" [سورة هود، الآية: 32]، "فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ" [سورة هود، الآية: 74]. وغير بعيد عن هذا المعنى معنى الجدال في سورة المجادلة التي أقرت مبدأ الجدال من خلال سماع الله عز وجل لقول المرأة المجادلة واستجابته لها: "قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ" [سورة المجادلة، الآية: 1.

1-الجدال الملازم للشرك والكفر: وهو الجدال الذي يتعدى حدود ما جعله الله مناسبا للطبيعة الإنسانية:

أ. كالجدال بالباطل في مواجهة الحق: "وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا" [سورة الكهف، الآية: 56.].

ب. والجدال في الله وآياته "مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ" [سورة غافر، الآية: 4]، "وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ" [سورة الحج، الآية: 8.]

ج. والجدال النابع من وسوسة الشياطين: "وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ" [سورة الأنعام، الآية: 121.

2- الجدال الملازم للدعوة المشروط بالإحسان: وهو ما بينته آية النحل: على العموم "ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ" [سورة النحل، الآية: 125]. وبينته آية العنكبوت بخصوص جدال أهل الكتاب: "وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" [سورة العنكبوت، الآية: 46]

وبذلك يكون القرآن الكريم قد ميز بين المذموم من الجدال والمحمود، بين الطبيعي، وغير الطبيعي، وحدد شروط الجدال المطلوب، والفئة المستهدفة به .

من أجل ذلك يؤدب الله عباده في شخص رسوله الكريم بما يكفل للجدل أن يصل إلى الحقيقة التي دعتهم إليه. فيقول سبحانه: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: 125]. ويقول: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: 46]. فلم يكتف القرآن في هذه الآية بحثّ المؤمنين على أن يكون جدالهم لأهل الكتاب بالتي هي أحسن. ولكنه زاد فحث الرسول على مودتهم واستمالة قلوبهم، والمجاهرة بأنهم يؤمنون بما أنزل إليهم وما أنزل إلى أنبيائهم، وأنهم وإياهم يعبدون إلهًا واحدًا لا خلاف عليه. وينهى عن الجدال في الحجّ، ويجعله فيما ينهى عنه قرين الرفث[1] والفسوق[2]. فيقول: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ [البقرة: 1977]. وهذه الثلاثة قبيحة مستهجنة في غير الحج، لكن تخصيص الحج يجعلها فيه أشدّ قبحًا واستهجانًا.

---

[1]- الرفث: الفحش في القول.

[2]- الفسوق: مجاوزة حدود الشريعة.

وبنهى الرسول صلوات الله عليه أن يُماري[1] أهل الكتاب في أهل الكهف. إلا مراءً ظاهرًا لا عمق فيه ولا مغالبة. يقتصر فيه على ما أوحى إليه فيهم من غير تجهيل لهم. ولا عنف في الرد عليهم. فيقول:﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: 22].

وقيل لعبدالله بن الحسن: ما تقول في المراء؟ قال: ما عسى أن أقول في شيء يفسد الصداقة القديمة، ويحل العقدة الوثيقة، فإنَّ أقلَّ ما فيه أن يكون دربةً لِلمغالبة، والمغالبة من أمتن أسباب القطيعة[2].

ويدور جدل القرآن على ضروب من القضايا يكشف عن وجه الحق فيها، وأنواع من الدعاوى الباطلة يدحضها، ويدل على ما بها من زيف. من ذلك قضية إبليس إذ عصى ربه، وأبى أن يسجد لآدم مع الساجدين، ثم أقبل يُباهي بأصله، ويجادل عن نفسه، ويجاهر بالصد عن سبيل الله، في قحة بالغة، وجرأة جامحة. وذلك إذ يقول: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف: 11 - 188].

الفرق بين الحوار والجدال والمراء:

[redacted] أحد الطرق المهمة في التربية، وهو أسلوب حضاري يقوم على احترام الرأي الآخر. وإظهار الحجة بالمنطق والدليل. وقد يعترض المحاور على خصمه فيدَّعي [redacted]. وشتَّان بينهما: [redacted] هنا: عبارة عن [redacted] يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها. والغرض منه إلزام الخصم. وإفحام مَن هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان. أو هو دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة. أو يقصد به تصحيح كلامه. وهو الخصومة في الحقيقة . حينما يقوم على فرض الرأي بالقوة، وعدم احترام الرأي الآخر. لذا جاءت السنَّة النبوية تحضُّ على ترك [redacted]. فعن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ أنا زعيم ببيت في رَبَضِ الجنة لِمَن ترك [redacted] وإن كان مُحِقًّا، وببيت في وسط الجنة لِمَن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيت في أعلى الجنة لِمَن حَسُنَ خُلُقه.

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ مَن ترك الكذب وهو باطل بُنِي له في رَبَضِ الجنة، ومَن ترك [redacted] وهو مُحِقٌّ بُنِي له في وسطها، ومَن حسَّنَ خُلُقه بُنِي له في أعلاها .

نماذج في جدال الأنبياء عليهم السلام للأمم في القرآن الكريم:

جدال نوح عليه السلام: قال: (استغفِرُوا رَبَّكُم إنَّه كانَ غفاراً. يرسلِ السماءَ عليكُم مدراراً. ويمددكم بأموال وبنينَ ويجعلْ لكُم جناتٍ ويجعلْ لكم أنهاراً. ما لكُم لا ترجونَ للّهِ وقاراً. وقد خلقكُمْ أطواراً. ألمْ تَرَوا كيفَ خلقَ اللّهُ سبعَ سماواتٍ طباقاً. وجعل القمرَ فيهنَّ نوراً وجَعَلَ الشمسَ سِراجاً. واللّهُ أنبتكُم منَ الأرضِ نباتاً. ثم يُعيدُكم

[1]- يماري: يجادل.

[2]- "البيان والتبيين": 1: 313.

فيها ويخرجُكم إخراجاً. واللهُ جَعَلَ لكُم الأرض بِساطاً لِتسلكُوا منها سُبُلاً فِجاجاً) . وقال تعالى: (ولقدْ أرسلْنَا نوحاً إلى قومِهِ إني لكُم نذيرٌ مبينٌ. أن لا تعبُدُوا إلاَّ الله إني أخَافُ عليكُم عَذَابَ يومٍ أليم. فقال الملأ الذينَ كفرُوا مِنْ قومِهِ ما نراكَ إلا بَشراً مِثْلَنَا وما نَرَاكَ اتَّبعكَ إلاَّ الذينَ هُمْ أراذِلُنَا بادِيَ الرأي وما نَرَى لكُم عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بلْ نَظُنُّكُم كاذبين)

ففي الآيات رد على الشبهات الثلاث السابقة:

فأما الشبهة الأولى: **وهي أنه بشر. فقد رد عليها بقوله :﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾. وهذه الشبهة هي المعجزة الدالة على النبوة. وأما الرحمة. فهي النبوة ﴿ وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ ﴾[8]. ولكنهم في عمًى عن الحق. فالتبس عليهم الحق ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ بسبب عمى البصيرة.**

وقوله تعالى :﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾. قال الرازي: "فيه ثلاثة مضمرات: ضمير المتكلم. وضمير الغائب. وضمير المخاطب .[9]"

وأما الشبهة الثانية. **وهي قولهم لا يتَّبعك إلا أراذل الناس. فالرد عليها بقوله :﴿ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾. وأنه لن يطرد الفقراء إرضاءً للأغنياء ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [هود: 29 .]**

وأما الشبهة الثالثة:﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ...﴾ [هود: 27]. **فالردُّ عليها: "أن الله تعالى أعطاه أنواعًا كثيرة تُوجب فضله عليهم. ولذلك لم يَسْعَ في طلب الدنيا. وإنما سعى في طلب الدِّين. والإعراض عن الدنيا من أمهات الفضائل باتفاق الكل. فلعل المراد تقريرُ الفضيلة من هذا الوجه.[10]"**

أجابهم نوح عليه السلام بالحجةِ العظمى فقال: (يا قوم أرأيتم إنْ كنتُ على بيِّنةٍ من ربِّي) إلى هنا هي الحجة العظمى. وهذه الحجة العظمى هي التي أضافها الله عز وجل إلى نفسه في قوله: (وتلك حُجَّتُنا آتَيْنَاهَا إبراهيمَ على قومِه) وقد أشبعنا القول فيها في كتاب الحجة العظمى. (قالوا يا نوحُ قد جادلْتَنَا فأكثرتَ جدالَنَا فأتِنا بِمَا تَعِدُنَا إنْ كُنتَ مِنَ الصادِقين) .

أساليب الدعوة المتنوعة وتدرجها مع طول المكث وكثرة الجدال:

لمَّا دعا نوحٌ قومَه إلى عبادة الله وحده. وخوَّفهم عذابه وانتقامه. اتَّهموه بالضلال. فنفى عن نفسه الضلال. وأخبرهم أنه مُبلِّغ عن الله تعالى. وأنه ناصح لهم. ثم نتأمَّل الترتيب في قوله تعالى وهو يخاطبهم :﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: 63.]

يقول الرازي - رحمه الله:-

"بيَّن تعالى ما لأجله يبعثُ الرسول. فقال تعالى :﴿ لِيُنْذِرَكُمْ ﴾. وما لأجله ينذر. فقال ﴿ وَلِتَتَّقُوا ﴾. وما لأجله تُتَّقون. فقال تعالى :﴿ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾. وهذا الترتيب في غاية الحسن: فإن المقصود من البعثة الإنذار. والمقصود من الإنذار التقوى عن كل ما لا ينبغي. والمقصود من التقوى الفوز بالرحمة في دار الآخرة.[11]".

جدال إبراهيم وحجاجه وله ثلاثة مقامات:

" الأول ": مع نفسه. " الثاني ": مع أبيه. " الثالث ": مع نمرود وقومه.

الأول ": رأى كوكباً قال هذا ربي إلى آخر القصة. وجه استدلاله أنه رأى إنارةَ الكوكب وحسنهُ وعُلوّ مكانه ولم ير بله مثله. فقال: هذا ربي. بناء على أن الرب لا ينبغي أن يكون له مثل. فلما أفل أدرك نقصهُ وعيبه: لان الأفول

تغير. والتغيرُ حدوثٌ والكامل لا يجوز عليه الحدوث: لأنه صانع الحدوث وطرد القياس في الإثبات والنفي على باقي الكواكب بالاعتبار الأول. ومن حيث علم أنها مكونة مصنوعة علم أنها لا بد لها من صانع هو أكملُ منها فقال: (وَجَّهْتُ وَجهِيَ للذي فَطَرَ السمواتِ والأرضَ) ليدخل في ذلك الكواكب التي اعترضته في طريق الاستدلال".

المقام الثاني مع أبيه ": قال الله تعالى: (وَاذْكُر في الكتابِ إبراهيمَ إنَّهُ كان صدِّيقاً نبياً. إذ قال لأبيهِ يا أبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَالا يسمعُ ولا يُبْصِرُ ولا يُغْنِي عنكَ شيئاً. يا أبتِ إنِّي قدْ جاءني منَ العلمِ ما لم يأتكَ فاتَّبِعْنِي أهدكَ صراطاً سَوياً. يا أبتِ لا تعبدِ الشيطانَ إنَّ الشيطانَ كان للرحمنِ عَصِياً. يا أبتِ إنِي أخافُ أنْ يَمسَّكَ عذابٌ منَ الرحمنِ فتكونَ للشيطانِ وليّاً. قال أراغبٌ أنت عَنْ آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجُمَنَّكَ واهجُرني مليّاً) . فكان جواب أبيه جواب جاهل. لانه قابله على نُصحه لهُ بالرجم والهجر أشبه جواب قومه. وما كانَ جوابَ قومه إلا أن (قالُوا حَرِّقُوه وانصُروا آلهتكم) . ".

المقام الثالث ": مع النمرود وقومه وهو قوله تعالى: (ألَمْ تَرَ إلى الذي حاجَّ إبراهيمَ في رَبِّهِ أنْ آتاهُ اللهُ الملكَ إذ قالَ إبراهيمُ رَبِّيَ الذي يُحي ويميتُ قالَ أنا أحيي وأميتُ قالَ إبراهيمُ فإنَّ اللهَ يأتي بالشمسِ منَ المشرقِ فأتِ بها من المغربِ فَبُهِتَ الذي كَفَرَ واللهُ لا يهدي القومَ الظالمينَ) . فالصادرُ من خصمه معارضة إلا أنها فاسدة. لانَّ حقيقةَ الإحياء والإماتة التي فسرها خصمه غير الذي قصده إبراهيم. فلا يخلو حال نمرود إما أن يكونَ ما فهم حقيقة الإحياء والإماتة. أو فهم إلا أنه قصد المصادمة والمباهتة. وكلاهما يوجب العدولَ إلى دليلٍ يفضحُ معارضته ويقطعُ حجاجه. ومتى كان الخصم بهذه الصفة جاز لخصمه الانتقال إلى دليلٍ آخر أقرب إلى الفهم وأفلج للحجة. وسيأتي نظيره في قصة موسى عليه السلام. قال الله تعالى: (وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قالَ أتُحَاجُونِّي في اللهِ وَقَدْ هَدَانِ) وذكر الحجة العظمى فقال: (وَكَيْفَ أخَافُ) إلى قوله: (فأيُّ الفَرِيقَينِ أحَقُّ بالأمْنِ) وقد شرحنا هذا في كتاب الحجة العظمى. فإن قيل ما الحكمة أنه جادل الملك بالإحياء والإماتة والإتيان بالشمس من المشرق وكل ذلك يمكن دعوى المعارضة له والكلام عليه. ولم يدعه بالحجة العظمى وجادل قومه بالحجة العظمى. فالجواب أن الملك كان يدَّعي الربوبية. فلا يقال انه لا يخلو إما أن يكون لنا إله أو لا بخلاف حال قومه فإنَّهم لم يدَّعُوا ربوبيةً. لام عليه. ولم يدعه بالحجة العظمى وجادل قومه بالحجة العظمى. فالجواب أن الملك كان يدَّعي الربوبية. فلا يقال انه لا يخلو إما أن يكون لنا إله أو لا بخلاف حال قومه فإنَّهم لم يدَّعُوا ربوبيةً.

جدال موسى عليه السلام قال الله سبحانه: (فأتِيا فِرعَونَ فقولا إنَّا رسولُ رَبِّ العالمينَ) إلى أن قال سبحانه: (قالَ فِرعَونُ وَمَا رَبُّ العالمين. قالَ ربُّ السمواتِ والأرضِ وَمَا بينَهُما إنْ كُنتم مُوقنينَ. قالَ لمن حَوْلَهُ ألا تستمعُون. قالَ رَبُّكم وربُّ آبائِكُمُ الأولين. قالَ إنَّ رسولَكُم الذي أُرسِلَ إليكُم لمجنُونٌ. قالَ رَبُّ المشرقِ والمغربِ وَمَا بينَهُمَا إنْ كنتم تعقِلُون. قال لئن اتخذْت إلهاً غَيْرِي لاجعلنَّكَ منَ المسجُونينَ. قالَ أوَ لَوْ جئتكَ بشيءٍ مُبينٍ. قالَ فأتِ بهِ إن كُنْتَ منَ الصَّادقينَ فألقى عَصَاهُ فإذا هي ثُعبانٌ مبينٌ ونَزَعَ يَدَهُ فإذا هي بيضَاءُ للناظرينَ) والإشارةُ إلى وجهِ الدلالةِ منْ ذلكَ أنَّ فرعونَ لما قال: (وَمَا رَبُّ العالمينَ) علمَ موسى أنهُ سؤالٌ عنْ ماهية ربِّ العالمينَ. وربُّ العالمين لا ماهية لهُ. لانهُ الأول فلا شيءَ قبله فيكونُ منهُ. بل هوَ مكّونُ ما تتكونُ الأشياء منهُ. فلمْ يشتغلْ مُوسى بردِّ سؤالِه وبيانِ فسادِهِ. وكانَ المقصودُ تعريفَ الربِّ جلَّ وعلاَ بصفتهِ فقال: (رَبُّ السمواتِ والأرضِ وما بينَهما(

7

حصرَ الكائناتِ في ثلاث كلماتٍ فلما قال: (ألا تستَمعونَ. قالَ ربكُم وربّ آبائِكم الأولين) رداً على فرعونَ قوله (أنا بُكُم الأعلى) فلما قال: (إن رسولَكم الذي أُرسِلَ إليكم لمجنون) أردفَ ما ذِكرَ بشاهدينِ آخرين فقال: (رَبُّ المشرقِ المغربِ ومَا بينَهما) ؛ لانَّ المشرق والمغربَ آيتانِ عظيمتانِ لا يقدرُ فرعونُ على ادِّعائِهما. فلَما اندحضتْ حُجَّتُهُ ال: (لئن اتَّخَذْتَ إلهاً غَيْرِي لاجعلنَّكَ مِنَ المسجُونِينَ. قال أَوَ لَوْ جِئتكَ بشيءٍ مُبينٍ. قال فأتِ بهِ إن كنْتَ مِنَ لصَّادقينَ فَألقى عَصَاهُ فإذا هَي ثُعْبانٌ مبينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فإذا هيَ بيْضَاءُ للناظرينَ) آيتانِ عظيمتانِ في انقلابِ عيانِهما. وإنما كانت الآية في العصا؛ لأنها أنزلت على آدم بسببِ الكلبِ لما نبح عليه لما تعاظمت دعوى فرعون ويل بها إهانةً له واستحقاراً، وكونها ظهرت في صورة ثعبانٍ مناسب لحاله؛ لأن مسها لين وفعلها قاتل. وفرعون إظهار كرمهِ وعدلهِ لينٌ وفعله قاتلٌ لنفسهِ وغيرهِ. فأما يدهُ البيضاءُ فالإشارة فيها جئتكَ بالشرع النير الأبيض لذي لا ظلمةَ فيه. كما قال رسول الله (جئتكم بها بيضاء نقية) ولما كانت آية موسى عليهِ السلامُ حِسّيةً. معجزاتهُ مرئيةً لم يخاطبهمْ بالحجةِ العظمى؛ لأنها عقلية. ولما همُّوا بقتلهِ الهم اللهُ سبحانهُ مؤمنَ آلِ فرعون لحجة العظمى فقال: (أتقتلونَ رجلاً أنْ يقولَ رَبِّيَ اللهُ وقدْ جَاءَكُمْ بالبيناتِ من رَبِّكُم وإنْ يَك كاذباً فعليهِ كَذِبُهُ إنْ يَكُ صادِقاً يصبكُمْ بعضُ الذي يعدُكُم) وقد شرحنا ذلك في كتاب الحجة العظمى. وأما جدال رسول الله لكفار قريش واليهود فسيأتي في ذكر الأدلة الدالة على صدق رسالته.

8